رواية
قلوب
أقوى من الانهيار
زياد غزال فريحات
دار ابن حزم للنشر والتوزيع

صدر للمؤلف

روايات

شريعة خلف القضبان

الرداء المقاوم للرصاص

مسرحيات

قطب يعدم من جديد

التطبيع

قصص للفتيان

المؤلف حاصل على جائزة عربية في ادب الطفل

ارض الطمأنينة – شاركت بها المملكة العربية السعودية في مهرجان دولي

دائرة الانتقام

غابة النهر العذب

الصقر والضبع

صراع الاقصى مع الهيكل

الكنز المدفون

كتب فقهية

مشروع قانون البيوع في الدولة الاسلامية

حكم الشرع في البورصة

قصة القدس مع الاسلام والامة والخلافة

افلام وثائقية

هبة شعب – الحراك الشعبي في الاردن

ناثرات النور– قصة انتشار اللباس الشرعي في الاردن

بيت نتيف – حكاية النكبة واللجوء والمقاومة

برامج تلفزيونية

يحدث بيننا – قناة اليرموك

دق المهباش – قناة المجد

زياد غزال فريحات

قلوبٌ أقوى مِن الانهيار

رواية

دار ابن حزم للنشر والتوزيع

قلوب أقوى من الانهيار / رواية عربية

زياد غزال فريحات

الطبعة الأولى عام 2018

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

5/6/2018

ISBN 978-614- 419-123-7

قالوا عن الرواية

- الدكتور مُحَّمد الخواجا /طبيب نفسي -مستشفى الملك المؤسس:

"رواية رائعة... ومن ناحية علمية حالة القلق والتوتر والأحداث التي أدّت إلى ذلك مناسبة وصحيحة."

- خضر مشايخ / مدير قناة اليرموك الفضائية:

"رواية تحمل رؤية نادرة ومتبصرة على الواقع الذي ينبت الخوف والقلق بكثرة على الأفراد والشعوب."

- الكاتب مُحَّمد ياسر الكسواني- موقع الشام اليوم:

" رواية مؤثرة تأخذك لتحدي القلق الوجودي وتصوير دور الدين في حياة الإنسان ومدها بالأمل لتجاوز الألم"

- الدكتور رياض العيسى / دكتوراة في القلق الاجتماعي

"رواية تجسّد قلق الواقع ومخاوفه بطريقة إبداعية.. وتُذكّرنا بأسلوب مميّز بمهمة الدين الكبرى... البشرى..."

- علاء شديد / ناقد أدبي - جريدة الدستور سابقا:

"القارئ يلهث متنقلا بين صفحات رواية تأسرك منذ البداية إلى النهاية بأحداثها المتلاحقة المحبوكة بإتقان، أحداث تقطع الأنفاس، فلا تنفك تبحر بك في بحر قسوة الواقع المرير الذي يعيشه مجتمعنا، بأمواج القلق الهادر

والمتلاطم في النفوس، أحداث صادقة من رحم معاناة الأمّة... وكقبطان ماهر تحطّم الرواية أسباب اليأس والخوف والقلق وتعبر بك إلى شاطئ الأمنِ وحبل النجاة المعقود بالإسلام. (منذر) ثنائية النذير والبشير، الموت والحياة، ألم اليأس وأمل الطمأنينة، الضلال والهدى، الظلام والنور، وقلق تمحوه عقيدة نور الله."

- **المؤرخ شعبان صوان – تركيا بوست**

"يسرني أن ألتقي كاتباً يشخص معضلة قطاع واسع وصامد من الجيل المعاصر يصر على الامتناع عن طعن أمته في وجه كل التيارات المعاكسة من جهل وتحريف وإغراء وتثبيط، فتبدع قريحته وسائل المواجهة فلعل القارئ يشعر بأن معاناته عامة وطبيعية ويتخذ له رفاقاً مخلصين في درب الصبر والنصر."

حلم لم يتحقق

زيد غزال

بكالوريوس إخراج تلفزيوني وسينمائي

مخرج في قناة اليرموك الفضائية

لكل مُخرج حلم، وتحويل هذه الرواية إلى فيلم كان حلمي، قبل سنة وبعد مشاورات مع شركة بلو لايت للإنتاج الفني، تمّ الاتفاق على إنتاج فيلم سينمائي ضمن مشروع الدراما الإسلامية المعاصرة، فبدأنا بالبحث عن نصّ مناسب، فكان خيارنا الأول هو الأستاذ زياد؛ كونه أكاديميا يحمل درجة البكالوريوس في الدراما، ومتخصص في كتابة السيناريو التلفزيوني والسينمائي، وروائي يكتب في القضايا الإسلامية المعاصرة.

عرض علينا الأستاذ زياد ثلاث روايات مخطوطة غير منشورة، قمنا بعد جهد ومشاورات باختيار هذه الرواية، ومن الآراء المهمة التي أفدنا منها رأي الإعلامي المعروف والصديق العزيز الأستاذ عمر عياصرة كونه متخصصا في علم الاجتماع ويحمل ذائقة فنية عالية.

أمّا لماذا هذه الرواية؛ فلأنها تجسّد قصة معاناة شخصية داخلة في عمق البعد النفسيّ، وخلف هذه المعاناة، معاناة مجتمع، وخلف المجتمع أمّة، يربط كلّ ذلك فكر إسلاميّ نقي خالٍ من الشوائب في بناء درامي يوصل القيم الإسلامية بمنتهى الاحتراف، فيها شخصيات عميقة ماتع تمثيلها ومشاهدتها، عدا عن الأجواء السينمائية المرسومة بطريقة غاية في التشويق،

ومبنية على أحداث مليئة بالخوف والرعب تحاكي ما في دواخلنا من أحاسيس وتطرح العديد من الأفكار.

بعد اختيار هذه الرواية طلبنا من كاتبها أن يحولها إلى سيناريو فيلم، وبعد ثلاثة شهور قدّم الأستاذ زياد سيناريو الفيلم، وبعدما قرأت السيناريو، لست مبالغا إن قلت إنني شاهدته فيلما كاملا في خيالي وأصبح حلم إخراجه لا يفارقني.

وضعت ميزانية لإنتاج الفيلم، وهي (27) ألف دينار فقط! وهو مبلغ لا يُذكر في الإنتاج السينمائي، علما أن أجر المؤلف هو صفر وأجري كمخرج هو صفر أيضا، واتفقت مع الشركة في حال حصل الفيلم على أرباح من العائدات، يخصص لي أجر حسب ما يرونه مناسبا، وبدأت رحلة البحث عن ممولين لإنتاج الفيلم، وكانت المفاجأة اعتذار العديد من الشخصيات والمؤسسات عن المشاركة في تمويل الفيلم والأسباب أن الفيلم السينمائي ليس وسيلة فعالة لنشر الدعوة، واعتذار آخر لأن الفيلم مصبوغ بصبغة الإسلام السياسي، وآخر لأن الفيلم يسير في خطّ معارض للسلطة، واعتذار آخر لأن هذا الفيلم لن يُسمح بعرضه، لذلك قررت الشركة تأجيل إنتاج الفيلم حتى يأتي الظرف المناسب.

على الرغم من قرار الشركة بتأجيل إنتاج الفيلم إلا أنني ما زلت أعيش حلم إخراجه إلى هذا اليوم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1

لاتزال ذكرى الكبش المقيّد المعصّب العينين تزورني قهرا في أوقات الشدة والأزمات ، لتقول لي أن الأحداث تأخذني نحو مصير الكبش، كان الكبش يصرخ بأعلى صوته وكانت الشمس على مشارف الغروب، كنت وأخي مصطفى نمارس رياضة الجري، مصطفى يسبقني بعدة أمتار، توقّفت عن الجري عندما سمعت صوت الكبش المرعوب وصوت الكلاب الممزوج بشهوة الافتراس، بينما أخي مصطفى تابع الجري دون انتباه، كان الكبش معصوب العينين وهو واقف وقد ربطت كلّ رِجل من أرجله الأربع بوتد، وأحاط به أربعة شباب كلّ منهم يمسك بلجام كلب، موزّعين على قوائمه الأربع، وكلما ظفرته الكلاب بمخالبها وأنيابها شدّ لجامها الشباب، بقي الكبش يصرخ ويقاوم، ثم أخذ يصرخ دون مقاومة وبعدها وقع على الأرض هامدا دون حراك، نزل أحد الشباب وتفقد الكبش ثمّ وضع أذنه على قلب الكبش وقال:

●- الكبش مات، لقد توقف قلبه ...مات من الخوف

نزل شاب آخر وتفحص وجه الكبش وعينيه وقال:

●- نعم مات من الخوف... لقد سمعت جدي يقول إن القلوب مثل الخيام إذا خلعت أوتداها أو كسرت أعمدتها فمصيرها الانهيار.

بقيت واقفا حزينا مصدوما، غادر الشباب مع كلابهم وبقي الكبش الميت مقيدا ومعصوب العينين، اقتربت من الكبش، وفككت قيد أرجله وأزلت العصابة السوداء عن عينيه، وجلست أنظر إلى جثّته وإذا بيد أخي مصطفى على كتفي.

2

في ليلة من ليالي الشتاء، قمرها غائب، ومطرها يستعد للهطول، كان أبي وأمي عائدين من بيت عمتي، وأثناء العودة هطل المطر، كان أبي سعيدا بهطول المطر، إلا أنّ أمي كانت تعتقد أنّ التعرض للمطر يسبب الأمراض، وبعد برهة رأت أمي جرافة جاثمة على طرف الشارع، فاحتمت بها من قطرات المطر، كانت خلف الجرافة تلة من الأتربة والحجارة أحدثتها حفرية بقصد البناء، قال أبي لأمي التي ما زالت تحتمي بالجرافة:

●- إلى متى ستمكثين هنا؟

⊙- إلى أن يهدأ المطر.

●- هيا لنمشِ في المطر، فالمشي تحت المطر المبارك من السُّنَّة، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي هو وأصحابه تحت المطر ويقرأ قول الله تعالى: (وأَنْزلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكًا) ...

●- لن أتحرّك حتى يهدأ المطر، المشي تحت المطر يسبب الأمراض

وبعد لحظات تحرّك والدي نحو تلّة التراب، ووقف أمام جمجمة ظهر نصفها بفعل زخات المطر وكشف سترها نور عمود الكهرباء، ولما استخرجها نظر حوله فرأى حوضا صغيرا من الماء، وبعد غسلها وتنظيفها جيدا خلع سترته ولفّها بها، وأمي واقفة تنظر إليه لا تدري ماذا يفعل ولما اقترب منها سألته:

●:- ما هذا ... ماذا وجدت؟

⊙-: وجدت شيئا من الآثار القديمة

ولما وصل أبي وأمي كنت مستيقظاً، وكنت قد انتهيتُ من تشكيل لوحة كتابية بطريقة الحرق على الخشب، كانت اللوحة عبارة عن آية: (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) وما أن علقت اللوحة فوق سريري حتى سمعتُ صرخةً من أمي، فذهبت إليها وشممت رائحة ثوبها المبلل المعطّر برائحة المطر ثم قالت:

●- ما هذا ... جمجمة؟! ...

ردّ أبي ببرود:

⨀-: إنها جمجمة.... ولا بدّ من دفنها وإكرامها

●- اذهبْ وادفنها الآن ... ماذا تنتظر

⨀-: سأدفنها في الصباح ...لا داعي للقلق إنها مجرد جمجمة والجماجم لا تأكل البشر!

قالت لي وهي ترتعش:

●- إنّ رؤية الجماجم تثير خوفي وقلقي ... فما بالك عندما تبيت في بيتنا؟!

ذهب أبي إلى غرفة الضيوف ووضعها في جرار المكتب، وأنا واقف أنظر إلى الخوف في وجه أمي وألمس الخوف والقلق في راحة يدها المضمخة بالعرق، وبقيت أرى الخوف في وجهها يكبر، وألمس عرق القلق في راحتيها على مدى ثلاثة أسابيع متواصلة من وجود الجمجمة في بيتنا، وأبي يؤجل دفنها تارة، وينسى تارة، وينشغل أخرى.

وفي إحدى الليالي تسلّل أخي الكبير عوض إلى غرفة الضيوف، أشعل مصباح هاتفه الخلوي، وأخرج الجمجمة من الدُّرْج ووضعها على سطح

المكتب وجلس على الكرسي، وأخذ يحاول نزع الناب الأيسر للجمجمة، وهو ناب ملبس بالذهب، لقد أراد نزعه لبيعه، وبعد عدة محاولات تفاجأ عوض بصعود الجمجمة إلى أعلى واستقرارها فوق رأسه، دب الفزع والهلع في قلب عوض، فحاول الهروب ولكنه لم يستطع تحريك الكرسي إلى الوراء ووجد جسده محشورا بين المكتب والكرسي، فصرخ عوض ولكن صراخه كتمته يد قوية أغلقت فمه، فسمع عوض همسا في أذنه يقول:

●- يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (كسر عظم الميت ككسره حيا) مفهوم يا عوض، سنّ الذهب له صاحب وأنت لست صاحبه.

هز عوض رأسه بالموافقة مرعوبا، فتراخت اليد عن فمه، فالتفت عوض فوق رأسه بحذر وخوف، فوجد أخي مصطفى خلفه ملتصقا بالكرسي وممسكا أعلى الجمجمة بأصابعه، خاطبه مصطفى:

●- إن قمت بسرقة سنّ الذهب، فسوف أخلع سنّك بدلا منه.

3

عند الساعة الواحدة ليلا، كنت مستيقظا أدرس مادة الفيزياء، فقد بقي شهر ونصف على امتحان الفصل الأول للثانوية العامة، أفاقت أمي مفزوعة صارخة من كابوس رأته، اقتربتُ من غرفة نومها وطرقت الباب حتى فتح لي أبي، ورأيت أمي كما كنت أراها عدّة مرات في حياتي، أخذَتْ أمي تروي لنا كابوسها الذي بدأ بِدبّ الحياة في الجمجمة التي أُضيئت عيناها بضوء أحمر ثم خرجت وحدها من جرّار المكتب وزحفت حتى وصلت إلى غرفتنا، فدخلت ثم اقتربت من رأس أخي عوض، فنظرت إليه، ثمّ تركته واتجهت إلى رأس أخي مصطفى فتأمّلته ثم تركته واتجهت إليّ وأنا نائم فاقتربت من رأسي ثم فتحت فمها لتنهش رقبتي عند هذه اللحظة استيقظت أمي، قالت وهي تحاول بلع ريقها بصعوبة:

●– إذا لم تُخرج الجمجمة من البيت، سأخرج أنا منه وسأبقى في الشارع حتى تغادر الجمجمة بيتنا.

ردّ أبي:

⊙– سآخذها معي وأنا ذاهب إلى العمل

بعد ساعة، من ذهاب أبي إلى عمله اتصل أبي وأخبر أمي أنه دفن الجمجمة في إحدى المقابر.

4

كانت أمي تقف فوق كرسي تنظف سطح خزانة الكتب في غرفة الضيوف فوجدت كيسا أسود، فتحته بلطف وأخرجت ما فيه وإذا بالجمجمة أمامها، صرخت مفزوعة رامية الجمجمة إلى أعلى، وولّت هاربة، لكنها بعد عدة خطوات تعثرت، ووقعت على الأرض، في تلك اللحظة كانت الجمجمة قد وقعت على الأرض وتدحرجت واستقرت أمام وجه أمي، صرخت أمي بأعلى صوتها ، وصلت أنا وعوض إليها وهي ما زالت تصرخ، صَدَمنا مشهد الجمجمة، دبّ الخوف والرعب في قلوب الجميع، وما إن لبثنا لحظات نتجرع كؤوس الرعب حتى جاء أبي، دخل ولم يكلّمه أحد، نظر إلينا فأشار أخي الكبير عوض إلى الجمجمة، فحملها أبي وقال:

●- لقد أخفيتها جيدا ... كنت سأدفنها في إحدى المقابر بعد أيام ...سأذهب وأدفنها الآن.

غادر أبي البيت حاملا الجمجمة، وما أن غادر الغرفة حتى اقتربت من أمي، فشممت رائحة عرق يدها الذي كان ينضحُ بسخاء وأحسست بحلقها اليابس وسمعت أنين آلام معدتها الخافت والمخنوق، وهزّني بعنف خفقان قلبها الجَموح.

في تلك اللحظات كان خيال أمي شاردا، وبقيت أتأمل شرودها الغريب، فقد كان وجهها يتخلّله قسمات من الألم والمرارة والخوف، أنظر إلى وجهها المسلوب من خيالها الشارد، وأقول في نفسي:

●- تُراها، بماذا تفكر أمي ... كم أتمنى أن أسألها هذا السؤال، ففي كل مرة ينتابها الخوف والقلق، يشرد خيالها.

وبعد أيام من تلك الحادثة سألتها عن شرود عقلها في ذلك اليوم، قالت بعد صمت وتردّد:

●- شرد ذهني إلى ذلك اليوم الذي شكّلَ انقلابا في حياة طفلة كانت آمنة مطمئنة، كنت على شرفة البيت وأنا في التاسعة من عمري أسمعُ صوت الرصاص يدوّي في مدينة القدس، وفجأة رأيت الجنود اليهود يقفون في ساحات المسجد الأقصى، اقتربت أمي مني والقلق يشتعل في أعماقها على أبي وأخي الوحيد، اقتربتُ منها وأمسكتُ يدها التي كانت ترشح عرقا، ووضعت رأسي على صدرها فخفت من سرعة نبضات قلبها، وما هي إلا ساعة حتى جاء أبي يحمل أخي الوحيد على ظهره شهيدا، أدخله البيت وخرج مسرعا ببندقيته القديمة، وأخذت أبكي وعيناي على رأس أخي الوحيد، والدماء تسيل منه بفعل طلقةٍ اخترقت جمجمته من الجانبين، وبعد ساعات جاء رجل يحمل أبي على ظهره شهيدا، ووضعه بجانب أخي، فازداد خوفي ورعبي، وعيناي لا تفارقان رأس أخي ورأس أبي المهشم من الطلقات، لن أنسى منظر أمي وهي في زاوية الغرفة تبكي بصمت وترتجف طوال الليل وأنا أمام أبي وأخي الوحيد مصدومة مرعوبة محنطة، وفي الصباح حملتني أمي وبعد رحلة شاقة وصلنا إلى أخوالي في عمان. تخيل يا منذر أني بعد تلك الحادثة لم ألعب مع الفتيات إطلاقا.

يا ليت أمي لم تخبرني بتلك الذكرى المفجعة، يا ليتها كذبت عليّ بأي قصة تُدخل الطمأنينة إلى صدري، يا ليتها جعلت صورة جدي وخالي، منزوعة الخوف والقلق والصدمة والفزع، كانت أمي تشربني منذ الصغر كؤوس الخوف والقلق دون أن تشعر، ودون أن أشعر أنا أيضاً، يا ليت أمي أدركت أن كلّ شعورٍ بالخوف تنتقل عدواه إليّ بمجرّد النظر، وكلّ إحساس لها بالقلق أمتصه كاملاً غير منقوص.

5

كان الوقت بين المغرب والعشاء، كنت راجعا من درس خصوصي لمادة الرياضيات، وإذا بسيارة مسرعة فيها شخصان، تلفّ نصف دائرة بقصد الاستعراض، اصطدمت مؤخرتها بي فوقعت على الأرض، وقفت السيارة ونظر لي السائق وهو في الثلاثينات من عمره وخاطبني بعصبية:

- ● أنت أعمى يا كلب ...

وعلمت فيما بعد أن الشخص الجالس بجانب السائق ويكنى بأبي ناصر خاطب السائق الملقّب بالأطرش:

- ● الشاب الذي ضربته بسيارتك هو أخو عوض

رد عليه الأطرش بغطرسة:

- ● لو عرفت ذلك لبصقت عليه أيضا

وانطلقت السيارة مسرعة، قام أحد الشباب برفعي عن الأرض وأخرج جواله واتصل بأخي مصطفى وأخبره بما حدث، ترك أخي مصطفى المصحف وخرج من المسجد وجاءني خلال دقائق، اطمأنّ عليّ ورأى أن إصابتي طفيفة، خاطبني:

- ● انتظرني، سأعود بعد دقائق.

وما هي إلا عدة دقائق حتى جاء مصطفى بعصا فأس وقال اتبعني وما إن سرنا مئة متر حتى رأينا أخي عوض وصديق له قادمين نحونا، اعترض عوض مصطفى وقال:

●– إلى أين أنت ذاهب يا مجنون، أنت ذاهب إلى الأطرش، هذا شَبّيحٌ كبير ونحن لا قدرة لنا عليه.

أزاح مصطفى عوض بعنف وقال:

●– أنت، لا تفتح فمك بكلمة، أنت عليك أن تخرس فقط.

دفع مصطفى عوض ومضى في طريقه حتى وصلنا إلى بيت تقف أمامه السيارة التي صدمتني، ضغط مصطفى الجرس فدفعه عوض وقال:

●– هذا يكفي يا معتوه، هيا لنرجع، سوف تدمرنا ...

خرج طفل في العاشرة من عمره، خاطبه مصطفى:

●– قل للأطرش يا كلب، هناك من يريدك...

خرج الأطرش وقال بغطرسة الشّبّيحة:

●– ماذا هناك!

مصطفى:

●– أريدك في كلمتين يا كلب

وما أن سمع الأطرش مصطفى حتى أخرج من جنبه المسدس وسحب الأقسام وقال:

●– هل أنت مجنون أم تريد الانتحار على يدي، عوض خذ من معك وحسابكم ليس الآن، ولكنه سيكون سريعا...

مصطفى:

●– ولكن حسابك سيكون أسرع

ضرب مصطفى الزجاج الأمامي لسيارة الأطرش فحطّمه كاملا، فأطلق الأطرش عيارا ناريا في الهواء، عندها دفع عوض مصطفى إلى الخلف وقام عوض مع صديقه بسحب مصطفى إلى البيت، وصلنا البيت وإذا بباب البيت مفتوح، وأمي على الأرض مغمى عليها، أسعفها مصطفى، وبعدما استيقظت حملها ووضعها على الكنبة، كانت إحدى الجارات قد هاتفت أمي وأخبرتها عن مشكلتنا مع الأطرش، فهرعت إلينا وما أن فتحت الباب لتخرج حتى سمعت صوت إطلاق النار، فوقعت على الأرض مغشيا عليها، بقيت أمي صامتة تنظر إلى أبنائها دون توقف لكي تتأكد من وجودهم جميعا دون أذى أصابهم، قال عوض بعد أن أشار إلينا بيده:

●- اسمعا، ممنوع الخروج من البيت حتى أجد حلّا للورطة التي حلّت بنا، الآن الأطرش يخطط كيف يعاقبنا وكيف سيرد اعتباره بين الناس

مصطفى:

⊙- ماذا، يعاقبنا ومن قال لك أنني سأسمح له بمعاقبتنا، هل تعرف ما هي مشكلتنا ... مشكلتنا أن أخانا الكبير رخيص.

عوض:

●- وأنت تعرف ما هي مشكلتي ... مشكلتي أن لي أخوان معتوهان، أحدهما معاق لا يستطيع الدفاع عن نفسه، والآخر معتوه لديه الاستعداد لمحاربة الكرة الأرضية وليس لديه مشكلة في التسبب بتدميرنا أو حتى قتلنا جميعا، أخوك الرخيص يستطيع أن يفهم لغة الشبيحة ويستطيع التعامل معهم، ويستطيع أن يخرجكم من الورطة التي أنزلتها بنا

مصطفى:

●- وأنا كذلك أستطيع التعامل مع هذه الحثالات، أنا أريدك أن تريح نفسك وتترك الأمر لي.

قلت:

●:- لماذا لا نذهب إلى المخفر ونشكوه؟!

عوض:

-الشبيحة لا يخافون من مخافر الشرطة، إنما تخيفهم المحاكم، فهم يستمرّون بالتهديد والعربدة حتى يقفوا أمام القاضي ويحاكموا، إذا اقتنع الشبّيح بأنه سوف يحاكم فإنه سيعمل بكلِّ طاقته لإنهاء المشكلة، ولكنّ شبّيحًا بمستوى الأطرش تُكسر سيارته أمام الناس لا تكفي المحكمة وحدها بل يحتاج لشيء أخر يضاف إلى المحكمة.

مصطفى:

●- وما هذا الشيء الآخر؟

عوض:

- قصة مكذوبة، إذا صدق الأطرش جزء منها، ستنتهي المشكلة.

قصَدَ أخي عوض كشك القهوة الذي يمتلكه ويعمل به أبو ناصر صديق الأطرش، اقترب عوض من الكشك ببطء متخوِّفًا من ردّة فعل أبي ناصر عندما يراه، ولكنّ أبا ناصر ابتسم عندما رآه، ووضع كرسيا أمام الكشك وقال:

●- اجلس... لم أكن أعلم أن لديك أخا شيخا مرعبا... يبدو أن أخاك الشيخ مستعجل على الشهادة!

⊙- لأجل ذلك أتيت إليك، أخي الشيخ يريد أن يدمّرنا، لا يأبه بأخ ولا بوالد ولا حتى بأمّه، اليوم بعد صلاة العصر زارنا أربعة شباب ملتحين يلبس كلّ منهم طاقية سوداء وثوب أفغاني، وأخذ أخي مصطفى يروي لهم قصته مع الأطرش، وختم قوله بطلب المساعدة منهم للانتقام من الأطرش، فرد عليه أحدهم:

●- على أخيك أن يقدم شكوى ضدّه، وعندما يصل السجن، اترك الباقي لنا. ثم أخرج هاتفه واتصل بشخص داخل السجن وقال له:

●- سيأتي إلى السجن شخص لقبه الأطرش، أساء كثيرا لي ولإخواني ... سلّم لي على الجميع.

ثم تعجّب أخي عوض:

●- هل من الممكن وجود هواتف خلوية بيد السجناء؟!

ردّ عليه أبو ناصر وهو يُحضِّر القهوة لعوض:

●- الشيوخ عندهم في السجن كل شيء ...خلويات ...سكاكين ...من يقع بأيديهم يكون محظوظا إن خرج بعاهة واحدة.

ولكن عوض استدرك قائلا:

●- ولكني وقفت أمامهم وأكّدت لهم أن الأطرش لن ينزل إلى المحكمة لأننا لن نقدم شكوى...الأطرش صديقي ...وأنا لي حديث معه... آه ... يا أبا ناصر لا أدري ماذا أفعل؟!

قدّم أبو ناصر كوب القهوة إلى عوض، أخرج جواله واتصل بالأطرش وأخبره بما قاله عوض، وما هي إلا ساعة من الزمن حتى جاء الأطرش فجلس، ثمّ وضع أبو ناصر النرجيلة أمامه وأحضر الجمر، لكن عوض وقف وأخذ الجمر، ووضعه بعناية شديدة على رأس النرجيلة، سحب الأطرش نفسا وقال:

●- والله لولا أنك عزيز عليّ لأصبح أخوك إما مُشَرّحا أو مشلولًا

⨀- صحيح ...صحيح ...ولكن هل ترضى أن يقال لي – لو كان الأطرش صديقك لما فعل ذلك بأخيك – هل كنت تعلم أن منذر أخي؟

●- معاذ الله ...لوكنت أعلم أنه أخوك لأخذته بنفسي إلى المستشفى ... أخوك هو أخي يا عوض

⨀- أكيد... أنت بالنسبة لي أخي الكبير.

●- وحتى تتأكد من مكانتك عندي. سوف أعرّفك على صنف جديد ... البودرة ... الحشيش أصبح مثل الدخان، الكثير أصبحوا يتاجرون في الحشيش والذي لا يتاجر صار يزرعه في بيته ... البودرة هي تجارة الناس الكبار

⨀- أنت أخي الكبير والله إنك أخي الكبير .

6

في ذلك اليوم كنت منهمكا في دراستي، كان حلمي أن أدرس الهندسة، وكان الخوف والقلق قد هجراني أيام الثانوية العامة، فالسعي لتحقيق الأحلام والأهداف يقذف بالقلق بعيدا، حتى لا تكاد تراه أو تشعر به، في تلك الأجواء الاستثنائية من حياتي جاءتني أمي مرعوبة ... قالت:

●- أخوك عوض مسحور، قم معي لأخذِهِ إلى أحد الشيوخ، قلت لها:

●- عوض ليس مسحورا وليس مريضا.

ولما رأيت مصطفى قد خرج من الحمام وشرع في الوضوء، قلت

●- مصطفى يعلم علة عوض!

انفعلت أمي وقالت:

●- أخوك مسحور أنظر إلى وجهه.

كان وجه عوض شاردا بكل ملامحه، اقترب مصطفى من عوض وقال:

●- لو كان ابنك الكبير مسحورا، لكانت المصيبة هينة ... ابنك عوض يا أمي يتعاطى المخدرات.

ظهر على وجه أمي ملامح الصدمة والدهشة ثم ظهر عليها الدوار، فهرعت لأمسكها حتى أجلسها على الكرسي، سألت وهي تحاول بلع ريقها الملتصق بحلقها:

● - ومن أين يأتي أخوك بالمخدرات

رد مصطفى:

● - المخدرات أصبحت منتشرة في كل نواحي البلد، والحصول عليها ليس صعبا.

7

اقتربت امتحانات الثانوية العامّة، ولم يبق على موعدها سوى أيام معدودات، اتصل بي أبي من عمله، وطلب مني أن ألتقيه في مستشفى البشير، وعليّ التحرك على الفور، وأكّد عليّ ألّا أخبر أمي عن اتصاله أو عن وجهتي، التقيت بأبي يبكي على باب قسم الطوارئ، وهي المرة الوحيدة في حياتي التي أراه يبكي منهارا، سألته:

●- على من تبكي؟

⊙- على أخيك عوض ... أخوك عوض مات بسبب جرعة زائدة من المخدرات...

بقيت أمي بعد وفاة عوض صامتة لا تتكلم أبدا، مضربة عن الطعام، أغلب وقتها مع القرآن، وبعد عشرة أيام وهي على هذه الحال دخلنا عليها أنا ومصطفى، وضع مصطفى أمامها تشكيلة من المعجنات وسكب لها كوبا من العصير ثم قال:

●- عشرة أيام وأنت بلا طعام ... أين الصبر على البلاء ...أين الرضا بقضاء الله؟!

ظل أخي مصطفى يكرّر كلامه عن الصبر والرضا حتى تكلمت أمي وقالت:

⊙- صابرة وراضية، لكني مخنوقة ومكسورة ومقطّعة القلب، عندما استُشهِد أخي الوحيد شابًّا ظلّ جرحه نازفًا في قلبي، ولما خرج عوض من داخلي ورضع

حليبي توقّف النزيف والتأم الجرح، أما بعد عوض فقد انفتح جرح قلبي مرة أخرى، ولكنّ جرح اليوم أشدّ عمقًا.

8

ذهبتُ مع أبي لزيارة قبر أخي عوض، جلست بجانب القبر أدعو لعوض بالمغفرة والرحمة، بينما ابتعد أبي نحو قبر جدي الذي يبعد عن قبر عوض عشرات الأمتار حاملا الفأس الصغير، ولما وصل القبر أخذ يحفر بجانب الشاهد حتى أخرج بلاطة 30سم× 30سم ثم أخرج من تحتها كيسا أسود بحجم كرة القدم، وما أن اقترب مني حتى أخرج من الكيس الجمجمة التي مكثت في بيتنا أياما عديدة، فقد عرفتها على الفور من الناب الملبّس بالذهب، وأخذ يحفر حفرة بجوار شاهد قبر عوض، ووضع بها الجمجمة ووضع فوقها البلاطة، ودفن البلاطة بالرمال ... قال:

●- أحببت أن أدفنها بجانب قبر عوض ... لقد قمت بإكرام هذه الجمجمة لأنّ الله أمر بإكرام الميت، أسأل الله أن يكرم عوض ويغفر له.

⊙- آمين

بعد وفاة أخي عوض، ارتفع منسوب الخوف والقلق في أعماقي، فقدت أخي عوض وفقدت حلمي بدراسة الهندسة، فلم أحصل على معدل يؤهلني لدراسة الهندسة، وما إن وصلتُ الجامعة حتى انطفأت شمعة الطموح في قلبي، وهدأت فورة الحيوية في أعماقي، وضعفت عواطفي ومشاعري إلى حدّ الهشاشة وزاد إحساسي بقلة قيمتي، وفقدت قدرا كبيرا من الثقة بنفسي، وأصبحت أشعر شعور السجين المحكوم عليه بالسجن المؤبد.

وسرت في حياتي الجامعية التي أخذت تنقلني إلى أجواء مختلفة، وتبعدني دون أن أشعر عمّا يثير مخاوفي وقلقي، وركّزت اهتمامي على دراستي في تخصص اللغةَ العربية، ويسّر الله لي عبد المجيد أحد طلاب تخصصي ودفعتي، تعلقت بعبد المجيد بسرعة، وأعجبتُ بكلماته كثيرا، فقد كان يقول:

●- قلت لوالدي لن أدرس إلا الطبّ أو اللغة العربية، إلا أنني لم أحصل على معدل يؤهلني لدراسة الطب فاخترت على الفور اللغة العربية، رغم معارضة جميع أهلي وأقاربي، ولكن المخاوف أخذت تبرز عندما لاحظتُ أن كلام عبد المجيد تغلبُ عليه الصبغة السياسية، وكنت غير مستعدّ في ذلك الوقت لسماع أيّ انتقاد للسلطة، فكان قلبي يخفق ويجفّ ريقي وتهيج معدتي من الخوف عندما تزداد حدّة العبارات في انتقاد السلطة، كلماته في تلك الأيام ما زلت إلى هذا اليوم أحفظها، كان يقول:

●- هذا واقعنا في العالم العربي، استبداد وفساد، ليس للشعوب أي دور في اتخاذ القرار، وفوق ذلك نتعرّض لهيمنة واستعمار سياسيّ واقتصاديّ وثقافيّ، نحن في العالم العربي فاقدوا الحرية والكرامة.

كنت استغرب أنّ عبد المجيد رغم ثقافته وجرأته في الخوض في السياسة لم يكن ملتزما بدينه؛ فكنت أقوم إلى الصلاة وعبد المجيد جالس لا يصلّي، وفي أحد الأيام كنّا نتمشى بالقرب من مسجد الجامعة وإذا بصوت آذان المغرب، استمرّ عبد المجيد بحديثه حيث كان يقول:

●– لدينا في العالم العربي كلّ مقوّمات القوة والوحدة، قوة سكانية واقتصادية، موقع في قلب العالم، تاريخ عريق، ولكنّ نُخبنا السياسية قدّمت مصالحها الضيقة على مصالح بلادها، هذه النُّخَبُ قدّمت ولاءها للمستعمر على ولائها لشعوبها... اقتربنا من المسجد والآذان ما زال يُرفع، قال وهو يتنهّد:

●– السلطة في العالم العربيّ جرّفت كلّ الحياة السياسية، مثل ملعب كرة القدم، تقوم بتجريفه وتحويله إلى حفرة وتلة تراب، حتى لا يستطيع أحد اللعب، دائما أشعر أنّني مقهور، قلت له:

●– ما رأيك أن نصلي معا؟

كانت هذه هي أوّل مرّة أدعو فيها عبد المجيد إلى الصلاة ولكنه اعتذر قائلا:

●– اذهب أنت، وسأنتظرك هنا.

ذهبت إلى المسجد وقلبي يخفق وريقي جافّ، فأنا ما زلت غير مستعدّ لسماع أيّ انتقاد للسلطة، ورغم كلّ الآلام التي سببها لي كلام عبد المجيد في السياسة إلا أنني لم أستطع الابتعاد عنه، وأخذت أضغط على نفسي حتى لا أفقد صديقي الوحيد.

ومع الاستمرار في التحمّل للبقاء عند الحديث في انتقاد السلطة، زادت سيطرتي على الخوف والقلق، وكانت هذه هي أوّل مرّة أواجه فيها الخوف والقلق، فقد علّمتني هذه التجربة الكثير، وأهمّ ما تعلمته أنه (كلما زادت شدة المواجهة مع الخوف، وزادت مدتها ازدادت قدرتي على السيطرة على الخوف، وبالتالي التغلّب عليه).

دخلتُ المسجد وأنا أُردِّدُ (كلما زادت شدة المواجهة مع الخوف، وزادت مدتها ازدادت قدرتي على السيطرة على الخوف، وبالتالي التغلب عليه).

9

وفي بداية السنة الرابعة كنت وعبد المجيد واقفين في طابور الغداء في مطعم الجامعة، التفت إليَّ الطالب الذي أمامي في الطابور، واستأذنني للخروج من الطابور لوضع كتبه على إحدى الطاولات، وعندما وضع كتبه تفاجأ بصديق له فتحدث معه وتأخر قليلاً، ولما رجع إلى مكانه الذي أصبح قريباً من أوّل الطابور، خاطبه أحد الطلاب ممن هم في آخر الطابور:

●- يا أستاذ، ارجع وقِفْ على الدور مثل الآخرين.

فردّ عليه الطالب الذي أمامي بإشارة بيده معبئة بالاستهزاء تعني - اذهب وانصرف.

الطالب الآخر:

●:- قلت لك ارجع وأنت محترم.

فكرر الطالب الذي أمامي الإشارة نفسها، ولكن باستهزاء واستفزاز أشدّ، فما كان من الطالب الآخر إلا أن جاء مسرعا إليه، فحدثت بينهما مشادّة كلامية لم تستغرق إلا ثوان معدودة حتى تحوّلت إلى عراك بينهما، وخلال دقائق تحوّل عراك الطالبين إلى عراك بين عشيرتين أو بين أبناء مدينتين لا أدري... ما أفزعني وأدهشني أن هذه المشاجرة الكبيرة حدثت لسبب تافه كان يمكن تجاوزه بسهولة، وأمست الجامعة بالنسبة لي مصدراً للقلق والخوف، وأخذتُ أعدّ الأيّام حتى انتهت السنة الرابعة.

10

بعد أن أنهيت صلاتي وقفتُ أمام مسجد مجمع رغدان القديم أنتظر والدي الذي ما زال داخل المسجد، خرج والدي وسرنا معا باتجاه سوق الخلويات القريب من المجمع، قال والدي:

●- أنت الآن من الناحية القانونية متخرّج من الجامعة.

⨀- نعم، تخرّجت ولكن حفلة التخرّج بعد أسبوع.

●- مبارك يا منذر ... مبارك.

⨀- الله يبارك فيك.

وصلنا إلى سوق الخلويات، دخلنا محلّا لصيانة الخلويات لا يتجاوز عرضه المترين، قدّم أبي هاتفه للفنّيّ وقال:

●- هذا الخلويّ يتوقّف عن العمل عدة مرات في اليوم أثناء استعماله.

أخذ الفنيّ الهاتف وأخذ يضغط على الأزرار وبعد أقل من خمس دقائق أعطى الخلوي لوالدي وقال:

⨀- الخلوي الآن لن يتوقف معك أثناء استعماله، نقلت لك الأسماء على البطاقة.

قال والدي

●- كم تأمرني؟

⨀- يسّرَ الله طريقك ...عمل بسيط لا يستحق الذكر.

●- ولكني مصرّ على دفع الأجرة.

⨀- هذه الأعمال البسيطة نجعلها لوجه الله ... اتركنا نتاجر مع الله

●- الله يجزيك الخير

أخذ والدي الهاتف، وركبنا الباص للعودة إلى البيت وقبل وصول بيتنا بخمسمئة متر نزلنا من الباص فهذه المحطة أقرب نقطة لبيتنا، وأثناء سيرنا نحو البيت رأيت أحمد الأخ الأصغر لعبد المجيد مع شاب يخرجان من عمارة مكونة من أربعة طوابق، فيها مجموعة من الشقق السكنية، ناديت أحمد وسلمت عليهما أمام العمارة وتبادلت معهما الحديث، عرّفني أحمد على صديقه، شابّ اسمه رائد، يسكن في العمارة التي خرجا منها. وبعد دقيقة استأذنت من أحمد وصديقه اللذين تابعا طريقهما، بقي والدي واقفا أمام العمارة وعيناه لا تفارقان أسفل العمارة، أشار والدي إليها وقال:

●- تحت هذه العمارة كانت الجمجمة مدفونة، تلك الجمجمة التي أتيت بها إلى البيت وأنت في الثانوية العامة.

⨀- غريب ... ما الذي أتى بجمجمة إلى منطقة خالية من المقابر؟!

●- وما يدريك.. ربما كانت هذه المنطقة مقبرة قبل مئات السنين ... أنا وجدت جمجمة واحدة ولكن ربما كان داخل التراب المحفور عشرات الجماجم.

⨀- ممكن ولكن عدم وجود مساكن قديمة في هذه المنطقة يجعل الأمر غريب بالنسبة لي.

●- دعك من الجمجمة وقل لي متى تحصل على شهادة الجامعة

سرنا نحو البيت.

⨀- بعد أسبوع ... إن شاء الله.

●- لي صديق، مدير عام لمدارس خاصة.. هذا ليس أي صديق ... إنه صديق طفولة، عندما تحصل على شهادتك سأبعثك إليه.

11

كنت على موعد مع صديق والدي مدير عام مدارس خاصة في عمان الغربية وأخذت معي نُسخًا مصوّرة من جميع الأوراق التي طلبها المدير. استقبلني المدير في مكتبه بحرارة صادقة خالية من التكلّف، كتب على مكتبه بخط الرقعة – الدكتور أنس عثمان – قال لي:

●– والدك كان متفوقا، هل تعلم أنّ الذي درّسني جميع المواد العلمية في الثانوية العامة هو والدك، والدك رغم أنه يحمل شهادة الدبلوم في هندسة الميكانيك، فليس له مثيل بين جميع مهندسي الميكانيك في عمان كلّها ...هل أحضرت الأوراق معك؟!

قدّمت الأوراق للدكتور أنس وقد شعرت بحواجز كثيرة قد تحطمت بيني وبينه، قلّب الدكتور الأوراق بهدوء ثم خاطبني:

●– تقدير ممتاز... تبارك الله... أستاذ منذر أنت من الآن أحد المعلمين في هذه المدارس.

⊙– ما هي الصفوف التي سوف أدرسها؟

●– لأنّك حديث التخرج سأختار لك الصف السابع، فالطلاب في هذا السّنّ ليسوا صغارًا فيرهقوك وليسوا كبار فيتنمّروا عليك، وبعد هذه السنة سنتشاور أي صفوف يمكنك تدريسها.

⊙– هل من الممكن استعارة كتب اللغة العربية؟

●- بل من الأفضل استعارتها، حتى تطّلع عليها وتستعدّ لتدريسها، انزل إلى مستودع الكتب في الطابق الأول، وخُذ كتب اللغة العربية للصف السابع.

⊙- لجميع الصفوف إذا كان ذلك ممكنًا... سأقوم بإرجاعها قبل بداية العام الدراسي... سأقرؤها جميعها هذا وعد

رفع الدكتور أنس سماعة الهاتف واتصل بأمين مستودع الكتب وقال له:

●- كيف حالك؟ ... الحمد لله ... ماذا قال والدك عن الدواء الذي أحضرته له... معقول، إذا احتاج علبة أخرى أخبرني... هو غير موجود في أغلب الصيدليات العامة... أنا أحضرته من صيدلية مستشفى خاصّ بناء على وصفة كتبها دكتور صديقي في المستشفى ... الله يبارك فيك ...اسمع ...سوف يأتيك الأستاذ منذر، هو معلم جديد عندنا، سلّمه كتب اللغة العربية لجميع الصفوف على سبيل الإعارة، وسيرجعها قبل بداية العام الدراسي... الأستاذ منذر في طريقه إليك.

أغلق السماعة وأشار بيده نحو الباب بابتسامة عريضة:

●- الكتب في انتظارك.

12

أرجعت كتب اللغة العربية إلى المستودع، باستثناء كتب الصف السابع، دخلت على الدكتور أنس عثمان، وقدمت له ورقة مطبوعة، تناولها وكلما قرأ سطرا تصاعدت الحيرة على وجهه وعندما أنهى قراءة الورقة صمت قليلا وقال:

●- من المكن أن تحتوي كتب اللغة العربية على أخطاء مطبعية، أما الأخطاء الإملائية والنحوية فهذا من المستبعد جدّا.

⊙- توجد تسعة أخطاء مطبعية وأربعة أخطاء إملائية وثلاثة أخطاء نحوية.

●- هذه الأخطاء من جميع كتب اللغة العربية ...لجميع الصفوف

⊙- جميع الكتب للفصلين، الأول والثاني.

●- سوف أعرض هذه الأخطاء على رئيس قسم اللغة العربية في المدارس وهو رجل خبير يحمل درجة الدكتوراة.

بعد أسبوع استدعاني د. أنس إلى مكتبه، جلست مقابل رئيس قسم اللغة العربية د. يوسف، رجل في العقد الخامس من عمره، أخرج د. يوسف من حقيبته ثلاث أوراق وقدّمها إليّ وقال:

●- في هذه الأوراق وجهة نظري في الأخطاء التي قدّمتها، أخذت الأوراق ونظرت فيها، أكمل الدكتور أنس كلامه:

●- نحن جميعا نشكرك على الجهد الكبير والمميز الذي قمت به، الأخطاء المطبعية واضحة، أما الأخطاء الإملائية فهي في الحقيقة أخطاء مطبعية لا

إملائية، أمّا الأخطاء النحوية فهي ليست أخطاء؛ إذ يجوز فيها الوجهان، مع قناعتي أنّ الوجه الموجود في الكتب هو الأولى باستثناء رأيك في الكلمة الموجودة في كتاب الصف التاسع؛ فجوّ النص والمعنى والسياق يرجِّح الوجه الذي ذكرتَه، لقد بعثنا كتابا بالأخطاء المطبعية التي ذكرتها مع رأيك في الوجه النحوي للكلمة الموجودة في كتاب الصف التاسع، وأنا متأكد أن قسم المناهج سيبعث لنا كتاب شكر على ذلك.

ثم أشار بيده إلى د. أنس وقال:

●- وإدارة المدرسة بدورها تقدّم لك كتاب شكر على جهدك المميز.

عندها قدّم لي الدكتور أنس كتاب الشكر وقال:

●- هل تعلم يا أستاذ منذر أنك على حسب علمي أول أستاذ يأخذ كتاب شكر من مدرسة قبل أن يدخل غرفة الصف، أنا أكلفك بشكل رسمي بمراجعة كتب اللغة العربية قبل بداية كل عام دراسي.

غادرت مكتب الدكتور أنس وبيدي كتاب الشكر، وأنا أتلذذ بشعور الاعتزاز النادر في أيام حياتي، لا أذكر أنّي شعرت بالاعتزاز إلا هذا اليوم، ويوم تخرّجي من الجامعة، كان شعوري بالدونية هو الشعور السائد والبارز في الليل والنهار، الإنجاز هو القادر على استخراج شعور الاعتزاز من قاع أعماقي السحيق.

ذهبت إلى عبد المجيد في ذلك اليوم الجميل، وخرجنا معا إلى منطقة مطلة على الناحية الشمالية من العاصمة عمان، وصلنا قبيل آذان المغرب بقليل، أخذت قارورة من الماء وشرعت بالوضوء، وعبد المجيد يقرأ كتاب

الشكر، والورقة التي تحتوي الأخطاء التي استخرجتها من كتب اللغة العربية، قال عبد المجيد عندما أكملت وضوئي:

●- شيء رائع، هل قرأت جميع الكتب دون استثناء؟

⊙- كلمة... كلمة

●- هل تعلم أن هذه هي المرة الأولى التي أشاهد لك عملا يثير إعجابي ...لأجل ذلك فمهمّة تدريس أخي أحمد لمادة اللغة العربية، مهمّتكَ

⊙- في نيتي فعل ذلك... أحمد هذه السنة توجيهي وسأبذل قصارى جهدي معه.

فرشت سجادة الصلاة أمامي ودعوت عبد المجيد:

●- ما قولك أن نصلي معا؟

⊙- صلِّ أنت ...ولا تنسني من الدعاء.

13

في ليلة امتحان اللغة العربية (مهارات الاتصال) للدورة الشتوية قمت بمراجعة المادة لأحمد في بيته، وبعد انتهاء المراجعة وشروعي بمغادرة البيت أخذ عبد المجيد مفتاح السيارة لتوصيلي إلى البيت، وعند الباب سلّم عليّ والده ووضع في يدي مغلّفًا قلت له.

●- ما هذا؟

⨀- هذا حقّك.

رميت المغلف على كرسيّ قريب مني وقلت:

●- حقّي أخذته بالتعرف عليكم، كما أن عبد المجيد له عليّ الكثير... وأقسم بالله العظيم لن آخذ منكم أيّ مقابل... السلام عليكم.

وبعد عدّة أيام اتصل بي عبد المجيد فظننت أنه سيحاول إعطائي مبلغا مقابل دروس أخيه أحمد، وكنت حاسما في رفضي، استقبلتُ المكالمة فقال:

●- الثورة التونسية انتصرت.. زين العابدين هرب ... ياه.. كم نحن مشتاقون للحرية والكرامة.

كان مشهد الرجل الذي يصرخ في الشارع: " تحيا تونس الحرة ...الشعب التونسي العظيم" مؤثرا وممتعا كما كان مشهد مدير المخابرات المصرية وهو يصرّح: " قرّر السيد مُحَّد حسني مبارك التنحي عن منصب رئاسة الجمهورية" مدهشا ويرسم النصر ولكني رغم تلك المشاهد نظرت إلى الربيع العربي بتوجّس

وخوف، كانا مخزونين في أعماقي منذ أن كنت طفلًا صغيرًا ألمس عرق راحة أمي وعيناي في عينيها أقرأ الخوف والقلق في شحوب وجهها، وتعبيرات عينيها وتقوم هي بكتابتهما دون وعي على كل أوراق نفسي، وعلى دفاتر أيامي، أمّا عبد المجيد فقد شعر بالربيع العربي يحمل في أحشائه الطمأنينة، وكان يقول لي:

●- إذا تحطّم جدار الخوف في المجتمع فخوف القلوب يتعرّى ويضعف، عندما نهتف للحرية والكرامة، نحن نهتف للطمأنينة، يقول بصوت مشبع بالقوة والثقة:

●- إنّ الأمّة أمام لحظة ثورية، وإنّ لهذه اللحظة قوة عجيبة، ومفعولا عجيبا، يتحوّل فيها القلب الخائف المرتجف إلى قلب من حديد وينقلب المقهور إلى جبار، في تلك اللحظة ترتجف كل الأسلحة التي تمسكها السلطات وتتراجع سطوة جبروت السلطة، وتسقط كل الهيبات التي ارتداها الزعماء ورجالهم، ويتحول محترفو البطش والقمع إلى أساتذة في التفاهم والحوار، في تلك اللحظة تظهر للشعوب أعاجيب جميلة، وتتفجر ينابيع الأمل في صحراء يأس الأمة وترتفع السقوف التي عاشت تحتها الأمة منحنية مقهورة.

ورغم كلام عبد المجيد العميق والمؤثر فقد تملكني شعور قوي أن اللحظة الثورية التي تمر بها الأمّة لن تستمر طويلا لأنّي كنت على قناعة أنّ الأمة عاشت وتعيش في حالة خوف وقلق فهي مثلي تماما، شمعة الطموح في قلبها خافتة، وفورة الحيوية في أعماقها هادئة، و عواطفها هشّة، وفقدت قدرا كبيرا من الثقة بنفسها، كما أنها لا تحسن التصرف في وضعها الحالي.

14

مضت سنة وعدة شهور على الربيع العربي، وبدأت ألاحظ اهتمام مصطفى بالثورة السورية، كان يتكلم عنها بحرارة شديدة ويكرّر جملة - إنها معركة الأمة –.

وذات صباح أيقظتني أمي خائفة قلقة، قالت:

●– منذر ... منذر ...أخوك مصطفى لم ينم البارحة في البيت!

أخذنا نبحث عنه دون جدوى، وبعد شهر من البحث المتواصل عن مصطفى، وعند الساعة الثانية تقريبا وأنا في طريقي إلى البيت عائد من عملي، رنّ على هاتفي رقم غريب خارجيّ، وإذا بصوت أخي مصطفى، صرخت فرحا:

●– مصطفى ... الحمد لله على سلامتك ... أين أنت؟ أمي تكاد تجنّ من الخوف عليك.

⊙– أنا في سوريا ... قل لأمّي وأبي إنِ اختارني الله شهيدا فلهما عليّ عهد أن يكونا أوّل من أشفع لهما يوم القيامة، وقل لهما أنني بخير، وأنّ مصطفى يرجو منكما الرضى والدعاء... في أمان الله يا منذر.

●– في أمان الله يا أخي مصطفى ... في أمان الله.

أقفل مصطفى الخطّ، وسرتُ على غير هدى حتى سمعت اسم سوريا يصدر من تلفازٍ في أحد المحلات يعرض نشرة أخبارٍ لقناة الجزيرة، فوقفتُ أشاهد آثار الدّمار والقتل بآلة نظامٍ احترفَ الإجرام. دخلت البيت يغمرني

التساؤل، كيف أخبر أبي وأمي عن مصطفى، كان والدي يتكلم بالجوال وأمي تلتصق به تتسمع باهتمام، انتهت المكالمة فنظر والدي إلى أمي وقال:

●- هذا ضابط كبير في البحث الجنائي، هو شقيق لمهندس زميل لي في المصنع، أقسم لي هذا الضابط أنه سيتابع موضوع مصطفى بنفسه.

⨀- ألم يخبرك بأي معلومة... أي خبر... أي كلمة عن ابني مصطفى؟

قلتُ وأنا أتحاشى النظر إليهما:

●- مصطفى بخير...

هرعت أمي إليّ وقالت:

●- بخير ...أين هو؟ لماذا لم يأت معك؟ لماذا لم يتصل بنا؟

صرخ والدي على غير عادته:

●- إين أخوك يا منذر؟

●- مصطفى في سوريا، وهو بخير، طلب منكم الرضا عنه وعليه، وقال أنكما ستكونان أول من يشفع لهما يوم القيامة إن اختاره الله من الشهداء.

قالت أمّي وهي تبكي بصوتها المخنوق:

●- لماذا لم تقل له أن يرجع؟! لماذا لم تقل له أنّ أمّه ستموت من الخوف عليه؟ لماذا لم تقل له أن أمّك ستجنّ وتركض في الحارات وهي تنتظر قدوم نعشك؟ لماذا لم تقل له أنك قتلت أمك بلا شفقة ولا رحمة؟!

أمسكَتْ بقميصي وهزتني بعنف وأنا مستسلم وصرخَتْ:

●- لماذا لم تقل له أن ضربتين برأس أمك يعني جنونها، لماذا لم تقل له أنّ أمّك المسكينة بحاجتك أكثر من سوريا؟!

تركتني وجلست على الكرسي وقالت وهي تبكي:

●- الله يرضى عليك يا مصطفى ... الله يرضى عليك يا مصطفى ...

نظرتُ إلى والدي الذي كان واقفا ممسكا الكرسي بيديه، وبصره نحو الأرض، قال وهو على هيئته:

●- الله يرضى عليك يا مصطفى... ذبحتني يا مصطفى... لما صار أخوك يصلي وزاد اهتمامه بالدين... قلت الحمد لله، مصطفى بعيد عن المخدرات... ولكنّ مصطفى هجرنا من غير رجعة، إن بقي هناك كان مصيره الموت، وإن رجع فمصيره السجن... ما هذه الحياة التي تجبرك على الخوف على أبنائك الشباب مهما كانت طريقهم... الله أكبر، ما هذه الحياة التي تأكل أبنائي الشباب سواء أكانوا سيئين أم صالحين

وخرج والدي عن طبعه فضرب طاولة السفرة بيديه بعنف وصرخ:

●- الله أكبر ما هذه الحياة التي لا يوجد بها أمان على أبنائي الشباب... الابن المنحرف مصيبة والابن المستقيم مصيبتان؟!

وأصبحت أتابع الأحداث في سوريا، وأشاهد القتل والدمار، وأدقّق النظر في تلك المشاهد التي يظهر فيها الأحياء وسط الدمار لعلّي أرى أخي مصطفى.

15

كانت الساعة التاسعة ليلا عندما وصلت متجر والد عبد المجيد الكائن في جبل الحسين. دخلت فكان عبد المجيد وأبوه يستمعان باهتمام للدكتور صالح وهو أستاذ في الجامعة الأردنية، كان الدكتور يتحدث عن تجربته في الجامعة، وما أن دخلت حتى قال عبد المجيد:

●– هذا هو أستاذ اللغة العربية الذي أخبرتك عنه ...الأستاذ منذر.

سلّمت على الجميع، فأشار عبد المجيد إلى د. صالح وقال:

●– الدكتور صالح ...جدُّ الطالب الذي أخبرتك عنه.

جلست بجانب عبد المجيد و د. صالح مستمرّ في مقارنته بين طلاب اليوم وطلاب الأمس في مستواهم التعليمي وفي أخلاقهم قال:

●– درّست في الجامعة الأردنية طلاب السنة الرابعة من سنة 1980 إلى هذا اليوم ونحن في سنة ٢٠١٢ .... كم سنة ...٣٢ سنة لاحظت أنّ القلق في عيون طلبة السنة الرابعة أكبر من الطلبة الذين تخرجوا في العام الذي قبله، عندما أقارن بين القلق الذي رأيته على وجوه طلبة السنة الرابعة وفي عيونهم، في الثمانينات، وطلبة السنة الرابعة هذه الأيام، أرى الفرق كبيرا، وأراه في كلّ سنة يكبر أكثر ...

قال والد عبد المجيد:

●– كل ذلك بسبب الوضع الاقتصادي...

قال الأستاذ الجامعي:

●- أظن أنّ الموضوع أكبر من ذلك بكثير، ولكني على ثقة تامّة أنّه لا علاقة بين الفقر وبين الخوف والقلق

ردّ والد عبد المجيد:

●:- اذا بقيت أوضاعنا على ما هي عليه، فمصيرنا الانهيار.

الدكتور:

●- ولكن رغم كل الظروف التي مررنا بها، ورغم حجم الخوف والقلق الذي يكبر في أعماقنا فإننا لا يمكن أن ننهار، فالأمة لها قلب جمعي وهذا القلب أقوى من الانهيار.

هزّ والد عبد المجيد رأسه بعدم الموافقة وقال:

●- أنا على معرفة بقلوب انهارت كما تنهار العمارات؛ من أسفل طابق إلى أعلى طابق، أنا سمعت عن قلوب توقفت إلى الأبد من الخوف... من الخوف فقط.

تذكرت في تلك اللحظة الكبش الذي مات من الخوف...

عبد المجيد:

●:- هؤلاء هم الاستثناء... ما رأيك يا منذر؟

قلت:

●:- ممكن أن تكون القلوب المنهارة هي الاستثناء.

قاطعني والد عبد المجيد:

●:- ولكن لا تنسَ أنّ قلوبنا تفقد كل سنة شيئا من صلابتها، أنا في السوق وألمس تآكل قلوب الناس سنة بعد الأخرى.

أخرج الدكتور صالح ورقة مطبوع عليها اسمه وهاتفه وقال:

●- أستاذ منذر هذا رقمي ... سأنتظر منك اتصالًا ...الطالب الذي سوف تدرِّسه ذكي ولن يرهقك.

قال عبد المجيد:

●- ولا تنسَ أنه صديق أخي أحمد.

وما أن غادر الدكتور صالح حتى قال والد عبد المجيد:

●:- الجميع لديه خوف من القادم... من المجهول، فأنا مثال على أكثر أصحاب المحلات في البلد، عليّ أقساط البيت، وأقساط السيارة، وأغلب بضاعتي بالدَّيْن... شيكات ... فالجميع في حالة خوف من العجز عن السّداد والانكشاف... الوضع الاقتصاديّ هو السبب الحقيقي...

قلت وأنا صاحب خبرة مع الخوف والقلق:

●:- أنا مع الدكتور أنّه لا علاقة بين الفقر والقلق.

وعند الساعة الحادية عشرة ليلا أقفلنا المحلّ، ولما اقتربنا من سيارة والد عبد المجيد دفعني عبد المجيد نحو الباب الأمامي لكي أجلس فيه احتراما وتقديرا لي، ولكني سبقته إلى المقعد الخلفي، سارت السيارة باتجاه بيت عبد المجيد، التفت إليّ عبد المجيد وسألني:

●- ما رأيك أن ننزل إلى الطريق ونتمشى؟

⨀- هذا من دواعي سروري.

وبعد دقائق وصلنا إلى مفترق طرق، وإذا بسيارة تسير بسرعة جنونية وتصطدم بجهة السائق والد عبد المجيد ، أفقتُ من هول الصدمة فنظرتُ إلى والد عبد المجيد والدماء تسيل من رأسه، وعبد المجيد في حالة إغماء، وقد أخذ الدخان يتسرّب إلى داخل السيارة، في تلك اللحظة خفق قلبي نبضتين معاً وأحسست بروحي تستعد للخروج، التفتَ إليّ والدُ عبد المجيد بوجهه الذي يقطر دما وقال:

●- سنختنق... سنحترق...تصرّف يا منذر:

وبقيت في مكاني أتفلّت لكي أتصرّف ولكنّي مسلوب القدرة على التصرف، ثم أحسست بالاختناق، فصرخ والد عبد المجيد وهو يختنق:

●- إنّنا نختنق ... سنحترق...تصرّف يا منذر...تصرّف يا منذر...

خرجتُ من السيارة وحاولت فتح باب عبد المجيد، ولكنْ دون جدوى، وبقيت أحاول فتح الباب ثمّ أتوقّف، لا أدري ماذا أفعل حتى جاء الناس وقام أحدهم وهو يحمل عتلة بكسر الزجاج الأمامي وأخرج عبد المجيد، ثم حاول إخراج والد عبد المجيد، وإذا بالنار تشتعل بالسيارة فتراجع، وبقيت واقفا أنظر إلى عبد المجيد الغائب عن الوعي، وإلى النيران التي تلتهم جسد والده، حتى جاء الدفاع المدني فأطفئوا السيارة وأخرجوه.

توفى والد عبد المجيد، وأصيب عبد المجيد بكسر في يده اليسرى، وبدأ يكبر إحساس بالذنب في أعماقي بأني أتحمل جزءا من المسؤولية عن وفاة والد عبد المجيد بسبب عجزي عن التصرف.

وبعد أيام من وفاة والد عبد المجيد، وفي إحدى الليالي وأذان الفجر يُرفع فتحَتْ أمي باب غرفتي كعادتها منذ أن كنت طفلا صغيرا فوجدَتْني جالسا على سريري في العتمة، أضاءت النور وقالت:

● - منذر ...خيرا إن شاء الله؟

⨀ - لا شيء... لا شيء يا أم عوض.

● - بالله عليك أخبرني... ما الذي سلبك النوم؟

⨀ - أتذكرين الحادث الذي تعرّضتُ له مع عبد المجيد ووالده؟

● - نعم أذكره.

⨀ - قبل وفاة والد عبد المجيد والدخان يتسرّب إلى السيارة... قال لي أنه يختنق وسوف يحترق... ودعاني عدّة مرات بصوته المخنوق أن أنقذهما، ولكني لم أستطع التصرف... أُحسُّ أني أتحمّل بعض المسؤولية عن وفاته... أو عن حرقه وهو على قيد الحياة... الإحساس بالذنب يقتلني... هذا الإحساس يبعدني رغما عني عن أعزّ أصدقائي، حتى أصبحت أتهرّب من لقائه لكي لا أنظر في عينيه فأرى والده يستغيث بي.

● - أنا يا منذر عشت عدة مرّات ظروفك نفسها...كنت لا أحسن التصرّف في الأزمات، وعندما تذهب الأزمة كنت شديدة النقد لنفسي، وهذا من أكبر الأخطاء التي اقترفتها في حق نفسي، أنا يا منذر أمضيت حياتي أبتعد عن كل ما يثير خوفي وقلقي، وكان ذلك ملائما لي فافعل مثلي.

⨀ - الابتعاد والهروب قد ينفع امرأة ربة بيت، أمّا مع شابّ في بداية حياته مضطر لدخول المجتمع ومعاركة الحياة... الهروب والابتعاد يضرّ ولا ينفع... لا

حلّ لي إلا المواجهة، ولكني غير قادر على المواجهة، كلّما تقدّمتُ خطوة أتتْ أزمةٌ فأتراجع إلى الوراء خطوتين، عندما نسيت الشعور بالدونية وهجرتني الكوابيس وزادت ثقتي بنفسي، أصبح عندي طموح وأحلام، فجأة انهار كل شيء ورجعت إلى بداية الطريق.

كنت أتكلم والدموع على خدي، كم كرهت دموعي القريبة، كم أحرجتني هذه الدموع كم فضحت ضعفي وقلة حيلتي... قلت بعد تنهيدة معبئة بالحسرة:

●:- كثيرا ما سألت نفسي، لماذا لا يوجد بين أبنائك شخصية سوية، شخص مدمن مخدرات، وشخص لا يعرف الخوف ولا يحسب للعواقب حساب، وشخص عكسه تماما يجلس يبكي أمام أمه...

كنت أبكي وأمي تضع يدها على فمها تكتم آهاتها وقد بللت يدها الدموع.

16

كان لقاؤنا ليلا في المدينة الرياضية جاءني عبد المجيد والحيرة تقطر من وجهه، قال:

●- توفى والدي وترك خلفه ديونا كثيرة، بيتنا بالأقساط وسيارتنا بالأقساط وبضاعة المحلّ أغلبها بالدَّين، جمعت ما حصلنا عليه من التأمين وأريد أن أستثمرها.

⊙- عليك بسداد دين والدك لأنه يكون مأسورا حتى يقضى دينه، فرسول الله ﷺ قال لأهل ميّت: (إن صاحبكم مأسور بدينه)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (من مات وهو بريء من ثلاث: الكبْر والغلول والدّين دخل الجنة)

●- ما يحزنني أنّ أبي توفي دون أن أراه يصلّي... أمي قالت أنه كان يصلي أحيانا يوم الجمعة فقط.

⊙- إذا صرتَ تصلّي فستكونُ أنت صدقة جارية له ما رأيك أن تبدأ من اليوم؟

●- إن شاء الله، قريبا إن شاء الله.

⊙- قم وتوضأ ...خير البِرّ عاجله.

●- هل تعلم أني صليت هذا الأسبوع صلاة الجمعة؟

⊙- من الآن الصلوات الخمس جميعها.

أحضرت قارورة ماء وصببت الماء على عبد المجيد حتى وصل إلى غسل الرجلين أخذ مني القارورة وغسل رجليه، وصلينا معا صلاة العشاء، وقرأت في الركعة الأولى قول الله تعالى: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي)

17

اتصلت بالدكتور صالح لترتيب تدريس حفيده، كان الوقت عصرا، ركبت معه من محل عبد المجيد وسرنا نحو بيت الطالب، وقفت السيارة أمام العمارة التي وجد والدي الجمجمة في أرضها، قال الدكتور صالح ونحن ننزل من السيارة:

●– في هذه العمارة الطالب الذي سوف تدرّسُهُ...

⨀– هذه العمارة تلاحقني منذ سنين

●– كيف ذلك؟

⨀– والدي وجد جمجمة في الأرض التي بُنيت فوقها العمارة

ظهرت آثار الدهشة على الدكتور صالح، سألني:

●– هل أنت متأكد؟

⨀– هذه الجمجمة مكثت في بيتنا أسابيع قبل أن يخرجها والدي ويدفنها

●– هل تتذكر أي علامة مميزة في الجمجمة؟

⨀– الناب الأيسر ملبّسٌ بالذهب.

●– أستاذ منذر هل تعلم أين دفن والدك الجمجمة؟

⨀– دكتور صالح... أنت تخيفني... هل تعلم مَنْ صاحب الجمجمة؟

●– أرجوك أجبني هل تعلم مكان دفن الجمجمة؟

⨀– نعم أعلم، ولكنْ أرجوك أن تخبرني بقصة الجمجمة، وما علاقتك بها؟

●– أعدك بأن أخبرك بكل شيء ولكن خذني إلى مكان الجمجمة.

ركبنا وسرنا نحو المقبرة، وصلنا قبر أخي عوض، وقمت بإخراج الجمجمة وتقديمها للدكتور صالح، تناولها الدكتور وعلى الفور تفقد سن الذهب في فكها الأيسر، ثم قبل جبهة الجمجمة، وقال:

●- أسأل الله لك الرحمة والمغفرة ... هذه جمجمة رجل صالح.

أعاد د. صالح الجمجمة إلى مكانها بلطف ومحبة واحترام، سألت الدكتور وهو يسوّي التراب فوق قبر الجمجمة:

●- ما هي قصة هذه الجمجمة وما علاقتك بها؟

⨀- هذه جمجمة والدي ، غدا إن شاء الله سوف أدفنها في قبر كباقي القبور وأضع على القبر شاهدا يحتوي الاسم وتاريخ الوفاة، والدي كان يشترك مع عمي في محلٍ لبيع التحف والنحاسيات في وسط عمان، وفي سنة 1955 في فترة وحدة الضفتين، جاء رجل وأخبرهما أن لديه تابوتًا حجريًا قديمًا وأنّه يريد بيعه، ذهب والدي وعمي لرؤية التابوت، وعندما رآه والدي عرف أنه يعود إلى مملكة عمون التي حكمت عمّان قبل الميلاد بمئات السنين، فاشتري عمّي ووالدي التابوت بحوالي مئة دينار، أحضر عمّي تجارا لشراء التابوت وبعد فحصه والتأكد من حقيقته اتفق عمي ووالدي مع التجار على بيع التابوت بخمسة آلاف دينار، وكانت تلك الصفقة أكبر صفقة في حياتهما، ولكنّ والدي وقَبْلَ تسليم التابوت علِمَ أنّ التجار يعملون سماسرة لليهود، وأنّ التابوت سَيُزَوَّرُ ويُحَوَّلُ إلى أثر عبريّ؛ فقام والدي بإخفاء التابوت، وأخبر أخاه الكبير بضرورة إلغاء الصفقة، ولكنّ عمي رفض وأصرّ على بيع التابوت، غيرَ أنّ والدي أصرّ أيضا على إلغاء الصفقة وأنه لن يُخبِرَ أحدا بمكان وجود

التابوت، فقام عمي بحفر قبر في أرض ملكيتها مشتركة بينه وبين والدي، حفر القبر بكل مواصفات القبور، كان مكان القبر في القطعة التي بُنيَت فوقها العمارة، ونصب عمي فوق القبر خيمة وسط عتمة الليل، وربط والدي، أخاه الصغير من يديه ورجليه وعصب عينيه ورماه في القبر وبدأ يهيل عليه التراب، كان قصد عمي تخويف أخيه حتى يعترف بمكان التابوت الحجري، غمر التراب بطن والدي ولكنه لم يعترف، ثم غمر التراب صدره كان عمي يردد جملة واحدة: " أين التابوت؟" ووالدي كان يردُّ بجملة واحدة: " لن أساهم في طعن أمتي؟" كانت كلمات والدي مليئة بالثبات، ثم وصل التراب إلى رقبته وهو يردد الجملة نفسها، وفجأة انزلق الفأس فوقع على رأس والدي، وقف صوته وشخصت عيناه وتجمدت حركته، مات والدي، نزل عمي إلى القبر مصدوما، بكى عمي طويلا لوفاة أخيه وبقي في القبر يبكي ثم خشي أن يكتشف أمره فأكمل دفن أخيه، وقبل ثلاث سنوات عندما بلغ عمي الخامسة والثمانين من عمره أخبرنا عمي بهذه القصة.

18

أوقفت السيارة أمام محل عبد المجيد بجوار سيارته، جاء عبد المجيد وأخذ يتفقدها ورغم تواضعها، كنت فرحا بها فقد اشتريتها من زميل لي في المدرسة، قال عبد المجيد:

●:- مبارك يا منذر، بارك الله لك فيها، لو أنك أتيت بها البارحة، فقد كنت بلا سيارة.

أشرت بيدي إلى سيارة عبد المجيد وقلت:

⨀:- وسيارتك هذه؟

●- لقد أخذها أحمد وصديقه رائد البارحة بعد المغرب، وأحضرها في الصباح وهي بهذه الحال!

الغبار ظاهر على السيارة وزاد على الجزء الأسفل من السيارة، فتح عبد المجيد خلفية السيارة وقال:

●:- انظر ماذا تركوا أيضا!

اقتربت فرأيت فأسا ومجرفة قصيرة اليد عليهما أثار الحفر... قلت

●:- أين يحفران ولماذا؟

⨀:- لا أعلم، ولكن هذه المرة الثانية التي أرى فيها الفأس والمجرفة في السيارة بعد أن يأخذها أحمد ويرجع بها مغبرة عند طلوع الفجر.

●:- هل سألته أين يذهب؟ لماذا الفأس والمجرفة؟

⨀- لا، ولكن في كلا المرتين جاء معه صديقه رائد... حفيد الدكتور صالح

●:- أراك مرتابا؟

⨀:- نعم ، الذهاب بسيارتي ليلا والرجوع وجه الفجر، والسيارة مغبرة مع وجود الفأس والمجرفة، ومؤشر الوقود يدلّ أنهما تنقّلا بالسيارة مئات الكيلو مترات، ألا يدعو كل ذلك للريبة والقلق؟!

●:- عبد المجيد يشعر بالقلق!

⨀:- إنه أخي الأصغر والوحيد.

●:- أريدك أن تذهب معي لزيارة قبر شخص سأروي لك قصته في الطريق، اليوم قمنا بوضعه في قبر خاص به، وعليه شاهد يحمل اسمه بعد عشرات السنين من وفاته.

وقبيل المغرب أغلق عبد المجيد المحل وذهبنا بسيارتي إلى قبر والد الدكتور صالح، ولما وصلنا القبر قرأ عبد المجيد الاسم: (إسماعيل سليمان — أبو صالح)، أخبرت عبد المجيد بقصة صاحب القبر ثم قلت:

●:- تعلمت من صاحب هذا القبر الامتناع عن طعن أمّتي، أسأل الله أن يعيننا على ذلك

○:- نعم فلربّما لا نستطيع خدمة أمّتنا، فعلى الأقل لا نساهم في عذابها وطعنها في جسدها الممزق.

●:- عند هذا القبر أُحِسُّ بالأمان، لذا إنْ جاء يوم ورغبت بإخفاء شيء فسوف أُخفيه في هذا القبر.

19

بدأ العام الدراسيّ الجديد، وكان هذا العام هو العام الثالث لي في المدرسة، وكعادتي قبلَ بدأ دوام الطلبة بأسبوعين أذهب إلى المستودع وآخذ كتب اللغة العربية من الصفّ الرابع حتى الثانوية العامّة، لكنْ هذه السنة اتصل بي أمين المستودع، وأخبرني أن كتب اللغة العربية لجميع الصفوف في انتظاري، عندما قدّمتُ مراجعتي للكتب إلى إدارة المدرسة استدعاني المدير العام للمدارس د. أنس بعد أيام، وقال لي:

●- أشكرك على مراجعتك لكتب اللغة العربية، وكم أتمنى أن تستمّر على هذه العادة الطيبة كلّ سنة، أستاذ منذر، لقد اختارتك إدارة المدرسة لتدريس ابن أحد المساهمين الكبار في هذه المدارس، هو رجل أعمال يقضي نصف السنة مسافرا بين كندا وأوروبا.

⨀- في أي فرع هو؟

●- الأدبي، ستدرّسه اللغة العربية مهارات الاتصال واللغة عربية تخصص.

قدم المدير ورقة وقال:

●- هذا عنوان البيت وهاتف الطالب.

بعد نهاية دوامي، اتصلت بالطالب ابن رجل الأعمال، فاختار يومي الخميس والجمعة الساعة العاشرة ليلا، ورغم أني لا أحبّ العمل يوم الجمعة إلّا أنّني لم أُبدِ له أيّ اعتراض، وفي مساء يوم الخميس ذهبت إلى بيته، كان عبارة

عن فيلا على أطراف منطقة الرابية، استقبلني الطالب واسمه تامر، وأنزلني إلى طابق تحت الأرض تتوسّطه صالة كبيرة، وقفنا في وسط الصالة وقال:

●- هذه صالة للسّهرات والحفلات والاجتماعات أيضا، أُحبّ أن آخذ دروسي هنا هل لديك مانع؟

⨀- لا... ليس لدي مانع ما دامت الصالة فارغة.

أشار بيده نحو طاولة سفرة على طرف الصالة وقال:

●- تفضل.

جلسنا وقمت بإعطائه أوّل ساعة في مادّة اللغة العربيّة تخصص، والساعة الثانية في مهارات الاتصال، وجعلت بينهما عشر دقائق استراحة، وبقيت على تلك الحال مدة ثلاثة أسابيع، وفي الأسبوع الرابع تحديدا في يوم الخميس، نزلت إلى الصالة فوجدت تامر جالسا في حالة اكتئاب، جلست بجانبه وأنا صامت، نظر إليّ وقال:

●- لا أستطيع أن أدرس اليوم ولكني أريدك أن تبقى معي

⨀- أنا معك، لكن هل الأمر يتعلق بك شخصيا أم بالعائلة؟

●- بل يتعلق بي فقط

⨀- يبدو أنه مؤلم جدا

●- أكثر مما تتخيل

⨀- هل هو سرّ لا يمكن أن تبوح به؟

●- لا ليس سرا، ولكنه شيء غير مفهوم بالنسبة إليّ.

⨀- ربما أستطيع أن أفهمه أنا أو نفهمه معا

●- لديّ صديقة منذ أشهر، كنت معها البارحة في سهرة، واليوم مرّت من جانبي ونظرت إليّ دون أي كلمة ثم صعدت في سيارة أحد زملائي وذهَبَتْ معه.

⊙- كونها صعدت مع رجل غيرك أمامك فهي من المؤكد فتاة لا تستحق ما أنت فيه من الحيرة والألم.

●- هل تعرَّضْتَ لموقف كهذا؟

⊙- أنا لم أصاحب فتاة في حياتي، أنا أعتبر أيّ علاقة غرامية بين شابّ وفتاة خارج دائرة الزواج هي علاقة غير شرعية، وإذا أردت أن أكون أكثر دقة هو سلوك سيء.

●- أنت لا تؤمن بالحُبّ...

⊙- لا يمكن لأيّ مشاعر جميلة ومنها الحُبّ أن توجد خارج دائرة الزواج، أيّ علاقة غرامية بين شابّ وفتاة خارج العلاقة الزوجية هي عبارة عن فيروس يقضي على مشاعر الحب الحقيقية في داخلهما، أنا أؤمن أنّ الحُبّ لا يوجد إلا في العلاقات المشروعة.

●:- قل ما تشاء، ولكني شعرت بالحُبّ مع تلك الفتاة.

⊙:- أنت شعرت بمشاعر أخرى، توهّمتَ أنها حُبٌّ ولكنها في الحقيقة مشاعر مدمرة وقاتلة لمشاعر الحُبّ الحقيقية التي لا يمكن أن تعيش أو تنمو إلا بعد عقد الزواج... أنصحك بالابتعاد عن صحبة الفتيات... هل تستطيع؟

●- أمر صعب ولكنّي سأحاول.

⊙- هل من الممكن أن نبدأ الدرس؟

●- ليكن اليوم استراحة ولكني أريدك أن تسهر معي.

⨀- لم أرَ في بيتكم إلا أنت والخادمة...

●- أبي وأمي في كندا، سيرجعان بعد شهر، وأخي سامر لا أراه إلا عندما يجمع أصحابه في هذه الصالة ليلا ليمارسوا طقوسهم.

⨀- طقوس ماذا؟

●- طقوس عبدَة الشيطان... أغلبها رقص على موسيقى البلاك ميتال.

⨀- وهل والداك يعلمان بذلك؟

●- بالتأكيد لا... هو يستغل غيابهما ليقوم بالطقوس هنا... لقد أصبح منهم منذ ستة شهور فقط.

20

وفي اليوم التالي وصلتُ إلى بيت تامر في الموعد المحدّد، رنَنْتُ الجرس ففتح لي تامر الباب، وهي المرة الأولى التي يفتح هو فيها الباب، فالخادمة هي من يفتح الباب دائما، فهممت بالنزول إلى الصالة، فقال تامر:

●- الصالة مشغولة الليلة بإمكاننا أن نأخذ الدرس في غرفتي.

⨀- وبماذا مشغولة؟

●- طقس انضمام عضو جديد لهم

⨀- وهل ثمّة طقوس خاصة بالانضمام لهم؟

●- نعم وسيبدأ بعد دقائق وهناك مكان يمكن أن ترى الطقوس دون أن يراك أحد... ما رأيك؟

⨀- أَمُتأكّد أنْ لن يرانا أحد؟

●- هيا سترى بنفسك.

أدخلني تامر إلى المطبخ الذي يطلّ على الصالة من علٍ، وما هي إلا دقائق قليلة حتى بدأت الطقوس، حيث رأيت المدفئة وقد صُفَّ في داخلها الحطب على شكل هرم، وفي أعلى المدفئة رُسِمَتْ دائرتان توسّطهما رأس كبشٍ، وفي وسط الصالة طاولة سفرة مغطاة بالقماش الأَسوَد، تناول شابّ عباءة سوداء وقام بارتدائها فوق ملابسه، ولِبْسُ العباءة يدلُّ على من سيقوم بدور الكاهن، تحلّق الجميع حول الطاولة وهم ثلاثة عشر شابّا جميعهم بين

سنّ الثامنة عشرة والثانية والعشرين باستثناء الكاهن الذي كان في الثامنة والعشرين، كان كلّ واحد منهم يرتدي بنطال جينز أسود، و(تي شيرت) أسود مرسوم عليه جمجمة بشرية باللون الأبيض، رنّ الكاهن الجرس اليدويّ تسع مرّات معلنا بداية القدّاس، وما أن دقّ الجرس للمرّة التاسعة حتى أُطفئت جميع الأنوار، وعلى الفور قام الكاهن بإشعال الشموع التي اصطفت على شكل رقم 666، ثمّ أشعل هرم الحطب داخل المدفئة، وإذا بشابّ يخرج من بين الحاضرين ويصعد على الطاولة ويستلقي على ظهره، ثم يكشف عن بطنه، فأعطاه الكاهن كأسا معدنية بحجم جمجمة الثور، فوضعها على بطنه المكشوف وهو ممسك بها من الجانبين، وإذا بمواء يتصاعد لقطٍّ أسود قُيّدتْ يداه ورجلاه مع جسده بشريط لاصق عريض، قبض الكاهن على القطّ من ظهره ورفعه إلى أعلى ثم أنزله ببطء فتلقاه شاب يقوم بدور مساعد الكاهن ليضع رأس القط قريبا من فوهة الكأس المعدنية، وفي حركة بطيئة أخرج الكاهن خنجرا وأحكم قبضته اليسرى بقسوة على وجه القط ثم رفع الخنجر وبسرعة البرق ذبح القط، وأخذ دمه يتصفّى في جوف الكأس المعدنية والجميع ينظرون بنشوة إلى دم القطّ المسال حتى تصفّى دمه، وضع الكاهن القطّ على الطاولة خلف رأس الشاب المستلقي، ثم أحضر سيفا فاستلّه بيده اليسرى من غمده ببطء، وأعطى الغمد لمساعده، ثم حمل الكأس بيده اليمنى وطاف على الجميع، وهو يقوم بوضع السيف على منتصف رأس الشاب ثم يعطيه الكأس فيرتشف منها رشفة واحدة ثم يصب منها على يديه قطرات فيمسح بها وجهه وما يستطيع من لحم جسده العلويّ، وعندما انتهى من الشباب الواقفين،

توجّه الكاهن إلى الشاب الذي ما زال مستلقيا فأعطاه الكأس فنهض وفعل كما فعل باقي الشباب، ثم قام الكاهن بمسح وجهه ورقبته بالدم وشرب ما تبقى من دماء القط بنهم، بعد ذلك أشار الكاهن لشاب من بين الحضور كنت أراه من الخلف، فلما استدار ورفع يده اليسرى أُصبت بالصدمة إنّه شابٌّ أعرفه وأعرف أهله إنّه أحمد أخو عبد المجيد، طلب الكاهن من أحمد أنْ يمسك بيد الشاب الذي يريد الانضمام إلى عبدة الشيطان، بينما يقوم الكاهن بجرح راحة العضو الجديد حتى تسيل الدماء، ثم يمسك الكاهن اليد المجروحة ويطوف بها على الجميع فيلعق كلّ منهم الدم المسال من راحة يد العضو الجديد، ولما أكمل الجميع لعق دمه، أخذ الكاهن يمتصّ الجرح تارة ويلعقه تارة، ثم أحضر الكاهن القرآن وفتحه من المنتصف ثم ألقاه بقسوة وسط نيران المدفئة، وعلى الفور تفجرت موسيقى البلاك ميتال فرقص الجميع على إيقاعها وعلى منظر حرق المصحف رقصا هستيريا، وكان أقلهم جنونا رائد صديق أحمد، سالت دموعي على أحمد، سألني تامر:

● - على ماذا تبكي يا أستاذ؟

⨀ - أبكي على شباب فقد كلّ شيء في حياته.

غادرت بيت تامر وصورة أحمد بين عبدة الشيطان لا تفارق خيالي، تساءلت مرارا:

● - ماذا أفعل؟ كيف أتصرف؟

وعندما أسأل نفسي: "ماذا أفعل؟ كيف أتصرف؟" تأتي صورة والد عبد المجيد أثناء الحادث وهو يقول لي: "تصرّف يا منذر... تصرّف يا منذر"...

21

وبعد صراع قرّرت أن أخبر عبد المجيد وكانت الساعة الثانية عشر ليلا واليوم هو يوم الخميس، ذهبت إلى المحل فوجدت عبد المجيد يصلي، لم أستطع الدخول، رجعت إلى البيت وصورة والد عبد المجيد أثناء الحادث تقول لي: "تصرّف يا منذر"، وبعد صراع مؤلم قرّرت أن أتصرّف ولكن كيف... لا أدري... وبعد أيام من الصراع والألم اتصلت بأحمد وأخبرته أني بحاجته لمرافقتي لإحضار حليب النوق لأمي من البادية الأردنية، وقام عبد المجيد بإعارتي سيارته ذات الدفع الرباعي، خرجتُ وأحمد في الصباح الباكر، وبعد ساعة من مغادرة العاصمة عمان جنوبا انعطفنا باتجاه البادية، وبعد توغّل استمرّ نصف ساعة تقريبا قلت له:

●- هل أحضرت معك ماء أو شيئا نأكله؟

⊙- لا، لم أُحضر شيئا

●- حسنا، دقائق وسنجد من يسقينا الماء.

وما هي إلا لحظات حتى ظهرت أمامنا خيمة صغيرة مغلقة لها باب وحيد مسدل يستر ما في داخل الخيمة، وقفنا أمام الخيمة، وحملت بيدي مطرة فارغة وقلت لأحمد:

●- هيا انزل لنشرب الماء ونملأ المطرة.

نزلنا ووقفنا أمام الخيمة وناديت:

●- يا أهل البيت... يا أهل البيت

دخلت من باب الخيمة وبعد ثوانٍ قليلة من دخولي ناديت أحمد:

●- أحمد... أحمد... ادخل لا يوجد أحد

دخل أحمد فوجدنا داخل الخيمة فراشا وماء وطعاما وحقيبة على فرشة في يمين الغرفة وحقيبة أخرى على فرشة في يسار الغرفة، فتحت الحقيبة التي في يمين الخيمة فقلت مستغربا:

●- ما هذا ؟...إنها بجامتي وهذه منشفتي... وهذا الشامبو الذي أستعمله... وهذه فرشاتي ومعجون الأسنان الذي استعمله... غريب هذه صورتي أثناء تخرجي من الجامعة.

اقترب أحمد من الحقيبة الأخرى وفتحها فأخرج بيجامته وهو صامت مندهش ثم منشفته ثم الشامبو الذي يستعمله ثم جثا على ركبتيه وأخرج من الحقيبة فرشاته ومعجون الأسنان الذي يستعمله ثم أخرج صورة فقال:

⊙- غير معقول!

اقتربت منه فرأيت صورته مع والده ثم قلب الصورة فرأيت كتابة بخط اليد قرأتها بصوت مسموع:

●- مع والدي في يوم دخولي الجامعة... هل هذا خطّ يدك؟

⊙- نعم إنّه خطّي... هذه الصورة تركتها في غرفتي... هلّا تفسّر لي لماذا نصبت الخيمة وأحضرت أغراضي وأتيت بي إلى هنا؟!

●- صدقني أنا لم أنصب الخيمة، ولم أضع أي شيئ فيها ولكني مقتنع أنّ ثمّة من هيّأ هذه الخيمة لاستقبالنا وكان يعلم أنّنا قادمان إلى هذا المكان... هيا خذ حقيبتك والماء وأنا سأحمل الطعام وحقيبتي ولنمضِ في طريقنا...

خرجنا من الخيمة فنظرت في السماء وقلت:

●- ألا ترى أن هذا الكون بكلّ ما فيه من أرض وشمس وقمر ومليارات الكواكب كان مهيئا لاستقبال البشر وكأنه يعلم أنّهم قادمون، الكون كان جاهزا لتلبية حاجاتنا بل حتى لرفاهيتنا وكأنّه فُصِّلَ على مقاس البشر، ثمّة من هيَّأ لنا هذا الكون وهذه الأرض لاستقبالنا، إنَّه اللهُ... خالقُ كلِّ شيءٍ.

وضعنا الأغراض في مؤخرة السيارة ثم فتحتُ باب السيارة وهممتُ بالدخول، فناديت:

●- أحمد تعال وانظر، اقترب أحمد فنزلت على الأرض أنظر إلى بيت للنمل.

⊙- ماذا وجدت؟

●- إنه بيت للنمل.

⊙- اقتربْ وانظر

نزل أحمد وأخذ ينظر إلى النمل فأمسكت ثلاث نملات بأصابع يدي اليمنى وهرستها بإبهامي وسبابتي، ووضعت أشلاء النمل في راحة يدي اليسرى وكررت ذلك ثلاث مرات ثم قلت وأشرت إلى أشلاء النمل في يدي اليسرى:

●- انظر إلى هذه المادة الجامدة العمياء كيف نشأت منها الحياة، ثم من أين امتلكت هذه المادة الحية القدرة على التكاثر، فالحياة شيء والتكاثر شيء آخر، ثمّ من أين جاءت هذه المادّة الحية القادرة على التكاثر بالأهداف والغايات.

دنوتُ برأسي أكثر نحو النمل وقلت:

●- انظر إليها إنها تسير بنظام دقيق تسعى لهدف مغروس في أعماقها وهو المحافظة على وجودها وبقائها على قيد الحياة.

وضعتُ مجموعة من النمل الحي بجانب أشلاء النمل على راحة يدي اليسرى وقلت:

●- ثمّة من أعطى الحياة لهذه المادة الجامدة العمياء، ثمّة من أعطى المادة الحية القدرة على التكاثر، ثمّة من أعطى هذه الكائنات أهدافا لتحافظ على بقائها، ثمّة من أوجد فيها نظاما للوراثة في منتهى الدقة والإبداع، ثمّة خالق لكلّ شيء، إنه الله إنه خالق عليم حكيم.

دخلنا السيارة ومضينا إلى حظيرة من الإبل، أخذ صاحب الإبل يحلبُ لنا ناقة، وما أن حلب ما يقارب اللتر حتى جاء وقدَّمَهُ لنا في صحنين من الفخار، ثم أكمل حلب النوق، قلت ونحن نشرب الحليب:

●- ما رأيك... أليس لذيذا؟

⊙- هذه أوّلُ مرة أشرب فيها حليب النوق... إنه حلو وكأن به سكّرا

●- هذه الجمال لديها قدرة عجيبة على تحمُّلِ درجة الحرارة المرتفعة وعلى تحمُّلِ العطش والجوع، انظر إلى سنامها فيها تخزن الدهون التي تستعملها عند الجوع والعطش، انظر إلى أذن الناقة تجدها صغيرة ومليئة بالشعر؛ حتى تقاوم غبار الصحراء وكذلك العينان لهما صفّان من الرموش الطويلة لتحميها من غبار الصحراء، حيوان سهل الانقياد تركبه، وتنقل الأحمال عليه، وتأكل لحمه وتشرب لبنه وتلبس وبره لقد فُصِّلَ للبشر الذين يعيشون في الصحراء.

حملت خمسة لترات من الحليب ورجعت إلى عمان من طريق البحر الميت، وفي الطريق انعطفت إلى استراحة البحر الميت، قلت:

●- هيا انزل خذ معك حقيبتك التي وجدتها في الخيمة لأنّها سوف تلزمك.

دخلنا الاستراحة وأحمد يحمل حقيبته، وأنا أحمل حاسوبي المحمول وحقيبتي، جلسنا على الشاطئ نتأمل البحر قال أحمد:

⨀- أتوقّع أنه حان الوقت لتخبرني عن الأسباب التي دفعتك لتأخذني بجولة مقصودة، تنصب خيمة في الصحراء وتحضر أغراضي من البيت، وتتقصّد أن تكون الخيمة بجانب بيت للنمل ثم إلى الجمال والآن إلى هنا...

●- سأخبرك كل شيء بالتفصيل ولكن خذ هذا الحاسوب وافتحه.

فتح أحمد حقيبة الحاسوب فوجده مفكّكا إلى عدّة قطع.

●- انظر إلى قطع الحاسوب إنّ وجودها لا يعني شيئا إلا إذا وضعت في مكانها المخصص فلو كانت هذه القطعة مكان هذه هل يعمل الحاسوب؟

⨀- من المستحيل لا بد للقطع أن ترتّب بوضع محدّد.

●- فلنرتّب قطع الحاسوب.

ركّبتُ ما فُكّك من قطع الحاسوب وشددت البراغي وقلت:

●- هيا شغّل الحاسوب.

قام أحمد بالضغط على مفتاح التشغيل وبعد لحظات قال أحمد:

⨀- لا يمكن أن يعمل... لأنّك قمت بمسح نظام التشغيل الويندوز.

●-كلّ القطع موجودة وجميع القطع مرتبة في مكانها الصحيح، لكنّ الجهاز لا يعمل إلا من نظام من خارج جميع قطع الجهاز.

⨀- أتوقع أني فهمت ما تريد الوصول إليه

أخرجت من حقيبة الحاسوب قرص مدمج وقلت:

●- قبل أن تقول شيئا، خذ وقم بتنزيل نظام التشغيل

شرع أحمد بتنزيل نظام الويندوز، نظرتُ إلى السماء وقلتُ:

●– كون واسع فيه الشموس والأقمار والكواكب والمجرات يحتاج شعاع الضوء ليقطعه مئات المليارات من السنوات، عمره ما يقارب أربعة عشر مليار سنة، قبل هذا العمر كان الكون بكلّ ما فيه لا شيء، كان عدما، لم يكن موجودا إطلاقا، ورغم وجوده لا يمكن أن يسير في تناغم مذهل وتناسق في قمة الروعة إلا إذا رُتِّبَت هذه المليارات من القطع في تصميم معين، ولا يكفي ترتيبها في تصميم معين بل تحتاج إلى نظام من خارج الكون.

⨀– يبدو أنك سمعت عني أشياء جعلتك...

رفعت يدي مقاطعا له وقلت:

●– بل رأيت... رأيت بعيني كيف كنت ترقص والمصحف يحترق، رأيت بعيني شابّا أحببته قد فقد إيمانه.

⨀– عندما فتحت الحقيبة في الخيمة أحسست أنك قد عرفت علاقتي بعبدة الشيطان

●– أردت أن اغرس في عقلك ووجدانك أن هذا الكون الأعمى لا يمكن أن يهيئ نفسه لاستقبالنا، ثمّة من هيّأ لنا هذا الكون لأنه يعلم أنّنا قادمون إليه، أردت أن ترى أنّ هذا الكون الذي كان عدما، ولم يكُ شيئا لا يمكن أن يُوجِدَ نفسَهُ... مستحيل... كما يستحيل أن يرتّب نفسه بهذا التصميم وهذا التناسق

والتناغم، ولو رتّب نفسه يستحيل أن يصنع نظاما من خارجه، أتعلم بعد هذه الجلسة إلى أين كنت سأذهب بك؟

⊙- إلى أين؟

●- إلى طبيب صديق لي يعمل في الطب الشرعي ليدخلنا إلى ثلاجة حفظ الموتى، ثم أُمسكُ يدك وأضعها على جسد الموتى وأقول لك وأنت تمسك بالجثة أنّ المادة التي تمسكها بيدك لا يمكن أن توجد وحدها، وإن وجدت يستحيل لهذه المادة الجامدة، أن تُخرج لنا الحياة، وإن حصلت هذه المادة على الحياة لا يمكن أن تحصل وحدها على القدرة على التكاثر بنظام الوراثة المعقد، وإن حصلت لا يمكن لها أن تحصل على الوعي والأهداف في حياتها... يستحيل، لا يمكن أن نتصور أن كلّ ذلك حدث من غير خالق حكيم عليم... هو الله

⊙- إنّني أؤمن بالله وبأنه خالق كل شيء.

●- وماذا يعني وجودك مع عبدة الشيطان

⊙- رغبة في التميّز وتجربة الأجواء الغريبة، والرقص على موسيقى البلاك ميتال.

●- مهما كان هدفك فإنّ طريقك الذي سرت فيه لن يُبقي في قلبك ذرة من الإيمان، أتدري لماذا؟ لأنّ إيمان البشر يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي هكذا خلق الله البشر...آن الأوان أن تستعيد ما فقدته من إيمان... نصلي معا صلاة المغرب.

⊙- لست جاهزا للصلاة!

●- نحن في مكانٍ الاغتسالُ متاح فيه بسهولة.

مشى أحمد عدة أمتار اغتسل في حمامات الاستراحة، ثم صلّينا معا، قرأت في الركعة الأولى قول الله تعالى: (إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيلِ والنّهارِ والفُلْكِ الّتي تجْري في البحرِ بما يَنْفَعُ النَّاسَ وما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وتصريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ المسَخَّرِ بينَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون)، وأكملت قراءةَ الآياتِ في الرَّكَعَةِ الثانيةِ: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ ... وما هُمْ بِخارِجينَ مِنَ النَّار) وبعد الصلاة قال أحمد:

⊙-كم هو عظيم الإيمان بالله

●- وكم هو سهل أيضا لأنَّه موجود في أعماقنا منذ ولادتنا، عندما وُلِدنا وُلِدت معنا طاقة لا تنضبُ تدفعنا إلى الإيمانِ بالله، ووُلِدتْ مع هذه الطاقةِ معرفةٌ مكتوبةٌ في عقلِنا وقلبنا أنّ خالقنا هو الله الحكيم العليم القادر على كلّ

شيء، ووُلِد معنا نداءٌ يصدر من داخلنا يقول: "لا إله إلا الله"... ويبقى هذا النداء يحدونا في جميع أيام عمرنا.

غادرنا الاستراحة وفي الطريق سألني أحمد:

⊙- هل يعلم أخي عبد المجيد بما كُنتُ عليه سابقا؟

●- لا... لا يعلم شيئا عن علاقتك بعبدة الشيطان، كل ما يعلمه أنّ سلوكك يزداد سوءا يوما بعد يوم، فاقترحتُ عليه أن أهديك إلى الصلاة بهذه الطريقة فقدّم لي كلّ ما طلبته منه لإنجاز مهمتي معك، فهو من نصب الخيمة وجعلها مهيّأة لاستقبالنا واختار موقعا بجانب بيت للنمل...

⊙- أحسنت التصرّف يا منذر ... أحسنت التصرّف يا منذر.

عندما سمعت ما قاله أحمد تذكرت قول أبيه أثناء الحادث وهو يقول: "تصرّف يا منذر"

22

جاء العام الدراسي الجديد وكعادتي أخذت مناهج اللغة العربية من الصف الأول وحتى الثانوية العامة، ورغم أن مراجعتي للكتب تركزت على الأخطاء الإملائية والنحوية، إلا أنّ تغيّرا في المناهج كان واضحا هذا العام، وهو حذف الكثير من الآيات والأحاديث من مناهج اللغة العربية، أحضرت المناهج السابقة وقارنت بينها، كان الفرق صادما فقد حُذِفَت مئتان وعشرون آية من كتب اللغة العربية، وتسع وثلاثون من الأحاديث النبوية، كما كان واضحا بل فاقعا حذفُ الصور التي تعبِّر عن قيمة إسلاميّة مثل صورة تعبيرية عن تعذيب قريش للمسلمين، وحذف صورة تعبيرية لقائد مسلم ملتحٍ فوق فرسه، وحذف صورة أب مع ابنه في المسجد، واستبدال صور المرأة المحجبة بصور امرأة غير محجبة، حتى الأسماء التي فيها دلالة إسلاميّة حُذِفَتْ، فقد حُذفَ اسم مُحَمَّد وخالد وفاطمة وعائشة، كما حُذِفتْ قصيدةٌ في حُبِّ النبي، وممّا زاد صدمتي ودهشتي ما حُذِفَ من سيرة ابن بطوطة هذه الكلمات: (أنّه حفظِ القرآن صغيرا، وتعلَّم العلوم الشرعية)

وبعد جهد كبير استمرّ عدّة أيام كتبتُ تقريرا شاملا عمّا حُذفَ من مناهج اللغة العربية لجميع الصفوف وقدّمته إلى إدارة المدرسة، وبعد يومين استُدعيتُ إلى مكتب المدير، وطلب مني أن أتكتّم على تقرير محذوفات مناهج اللغة العربية، وألّا أُخبرَ به أحدا... سألته:

●– لماذا؟! كلّ ما في التقرير دقيق وموثّق.

⨀- أعلم أنّه دقيق وهنا تكمن الخطورة... أستاذ منذر لا نريد أن يصدر من مدارسنا أو من العاملين فيها أيّ معارضة إعلاميّة لهذه المحذوفات... هل تفهمني أستاذ منذر؟

●- بصدق لم أفهمك؟

⨀- بشكل مكشوف، نحن مدارس خاصة، أيْ مشروع تجاريّ، والتجارة والسلطة يجب ألّا تتعارضا... هذا في كلّ العالم العربي... السلطة لن تسمح لمشروع تجاري يعارضها أن يكبر ونحن نريد أن نكبر.

●- التقرير الذي بين يديك هو بناء على طلب إدارة المدارس.

⨀- وها هو التقرير عندنا ونحن لا نريد أن يخرج إطلاقا من مدارسنا... هذا التقرير سيبقى عندنا ولنا فقط... إذا قمت بنشر التقرير لجهة غير مدارسنا سيكون سيرنا في مركب واحد صعب جدّا.

●- هل أفهم منك أنّني إذا قمت بنشر التقرير سأفقد عملي؟

⨀- إذا فقدت عملك فقط فأنت رجل محظوظ... أستاذ منذر أرجوك تصرف بحكمة، طبيعة المحذوفات في المناهج وحجمها غير مسبوق... أرجوك تصرف بحكمة.

خرجت من عند الإدارة والخوف والقلق يتمدّدان في أعماقي، ذهبتُ إلى عبد المجيد ليلا في ساعة قريبة من موعد إغلاق المحلّ، وقدّمتُ له نسخة من تقرير المحذوفات من مناهج اللغة العربية، قرأه بتمعّن وعندما أنهى قراءته

قال:

●- إنني أمام جرعة زائدة جدّا من تغيّر بنية المناهج حتى الأسماء الإسلامية حُذِفتْ، تصوّر في ظلّ أجواء هدم المسجدِ الأقصى والاستعدادات لبناء الهيكل توضع في مناهجنا قصّة الحيّة والحسّون التي تقول فيها الحية للحسّون: (وأعرف هيكلا مطمورا تحت تراب الأرض لم يهتد إليه باحث أو منقّب بعد، أزوره مرة في الشهر وهو من بناء جبابرة الأزمنة الغابرة، وقد نُقشت على جدرانه أسرار جميع الأزمنة والأمكنة)! هذا التقرير عندما يُنشَر سيكون له أثر كبير... أفضل توقيت لنشره هو أول أيام العام الدراسي... متى أول يوم دراسي؟

●- بعد أسبوع

⨀- ابعثه إلى أهم عشرة مواقع إخبارية في البلد ...لا تنس نقابة المعلمين.

●- لقد خيرتني إدارة المدرسة بين نشر التقرير والحفاظ على وظيفتي، ألم يحن موعد إغلاق المحل؟

⨀- لقد حان... أعرف ماذا تريد، تريد المشي في الليل.

أغلق عبد المجيد المحل ومشينا حتى دخلنا في شارع هادئ لا يسير فيه أحد، قلت:

●- فقداني لوظيفتي وأنا رجل أعزب شيء يمكنني احتماله ولكنّ إدارة المدرسة تتوقع أنّ نشر التقرير سيوصلني إلى السجن.

⨀- لا أتوقع أن تصل الأمور إلى السجن، ولكن إن سُجنتَ فيجب أن تصبر، عليك أن تنشر التقرير وتتحمل تبعاته...

● - لا أستطيع لأني مليء بالخوف والقلق...نفسي تتعذب... أنت لا تستطيع أن تتخيل كم هو شديد الألم النفسي... عندما أفكر في تبعات نشر التقرير أشعر بأني أقف على منتصف حبل مشدود يربط بين ناطحتي سحاب وسط ريح عاصفة.

⊙:- وأنا أريدك أن تنشر التقرير...حتى لا يأتي وقت يشعر الشعب بكامله أنه يقف على الحبل المشدود وسط الريح العاتية... الخوف و القلق ليس في داخلك وحدك، الخوف و القلق في أعماقنا جميعا ولكن بدرجات متفاوتة هل أذكرك بكلماتك التي كنت تقولها لي وأنت تدعوني إلى الصلاة؟ لا طمأنينة بلا إسلام...كنت تشدو في أذني... فَصْلُ الإسلام عن الحياة يساوي فصلَ الطمأنينة عن الحياة، وتتلو على مسامعي قول الله تعالى: (يا أَيَّتُها النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ ارْجِعي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً) ثمّ تقول: "لقد جئنا إلى الحياة بنفوس مطمئنة".

●- ولكنّ هذه الحياة التي نعيشها اليوم تُنبت الخوفَ والقلقَ بسخاء، حياة يتكاثر فيها الخوف ويكبر ويكبر ويتوحش... ولا طاقة لي على توحّشه...

⊙- استعن بالله ولا تعجز.

وقال وهو يشدّ على يدي التي ترشحُ عرقا:

● - لا تعجز يا منذر... لا تعجز يا منذر

23

رجعت إلى البيت وصورة عبدة الشيطان وهم يلقون بالمصحف في النار تحلّق في خيالي، لا تُبعِدُها سوى صورة والد عبد المجيد أثناء الحادث وهو يقول: "تصرّف يا منذر ...تصرّف يا منذر". دخلت البيت فوجدتُ أمي تقرأ القرآن، جلست مقابلها وقلت:

●- كثيرا ما تساءلتُ وأنا أراك تقرئين القرآن، ما فعلتْ قراءة القرآن فيك وأنا أراك لا تتغيرين!

⨀- القرآن هو الذي منع انهياري... القرآن هو من أبقاني إلى هذه اللحظة قادرة على القيام بواجباتي كأمّ وزوجة، لولا القرآن في حياتي لوجدتَني اليوم نزيلة في مستشفى الأمراض العقلية، القرآن هو من أضعف الخوفَ في داخلي ومنعه من أن يتوحش ويفترسني، القرآن هو من منع القلق أن يصبح غولا ينهش لحمي في الصباح والمساء، القرآن هو من ربط على قلبي ومنعه من الانهيار.

دخل والدي عائدا من عمله حاملا معه الخبز والفلافل والبندورة، جلس ووضع الأكياس على الطاولة وفتح كيس الفلافل وقدّم لكلّ منّا رغيفَ خبز وحبة بندورة، وبعد أن ابتلع لقمته الأولى نظر إليّ وقال:

●- اتصل بي الدكتور أنس، وأطلعني على موضوع تقريرك المتعلق بالمناهج، ودعاني أن أنصحك بعدم نشر التقرير.

⨀- ما نصيحتك يا أبي... وقبل أن تنصحني ما رأيك أن تقرأ التقرير؟

وقمت على الفور بإخراجه من حقيبتي، ووضعته أمامه، أخذه أبي وشرع يقرأ، فاقتربَتْ منه أمي وأخذت تقرأ معه ولما أكملا قراءته أعطاني إياه وقال بعد صمت ممزوج بالدهشة:

●- شيء مؤلم...كما أنه صعب ابتلاعه.

⊙- ما نصيحتك يا أبي؟

●- هل الحياة التي نعيش فيها معدومة الخيارات السعيدة أم أننا لم نستطع التكيف مع هذه الحياة، إذا كان ابنك لديه ميل للانحراف في هذا الزمن كارثة... مخدرات... عنف... وإن كان متدينا ويشتعل حماسا؛ ورطة كبيرة؛ وإن كان متدينا وهادئا ولكن عقله نظيف فأيضا مشكلة كبيرة، كلّ الطرق مسدودة ومؤلمة ما دمت مُصرّا أن تحترم ذاتك ودينك ...أنصحك يا منذر أن تتصرف بحكمة، وحاول أن يكون ثمن تصرفك في حدود طاقتك وطاقتنا أيضا.

قالت أمي:

●- ولا تنسَ أن ترحمني، إذا كان عندك قدرة على دفع ثمن تصرفك، فأنا لم يبق لي قدرة على الخسارة... أنا محتاجة إليك، لماذا تتصرفون معي بأنانية لماذا لا تحسبون حسابي وأنتم تدمّرون حياتكم وحياتي، لا نريد أن ندفع أثمانا، لقد دفعنا بما فيه الكفاية، كلّما حاولت أن أقف من جديد يأتي أحدكم ويحطم أقدامي.

قلت بعد أن وضعت كسرة خبز كانت بيدي

●:- أنا ما زلت إلى هذه اللحظة لا أدري ماذا أفعل

انفجرت أمي غاضبة:

⨀:- بعد كل ما سمعته مني تقول لا أدري ماذا أفعل... لماذا تحرقني بدم بارد...علينا أن نبتعد عن كل ما يسبب لنا المشكلات.

دخلت إلى غرفتي وبقيت جالسا في زاويتها المعتمة، وعند الساعة الواحدة ليلا وأنا على جلستي في زاوية الغرفة رنّ هاتفي وإذا بصوت أخي مصطفى قال:

●- أعلم أنّك لست نائما ... أنا أحسست أني بحاجة للحديث إليك... فمنذ خمس سنوات من المعارك والأهوال والصعاب لم أشعر بألم الخوف والقلق إلا هذه اللحظات، في هذه الليلة شعرت أننا في طريقنا للإبادة.

⨀- في أي مدينة أنت؟

●- في مدينة حلب، في هذه الليلة تذكّرتُ كلامك في تلك الليلة التي فزعت من نومك خائفا و أخذت تبوح لي عن جرائم الخوف والقلق في حقك، قلت إنّ الخوف والقلق أفقدك شجاعتك وحماسك وحسن التصرف، سرق منك الكثير من الثقة بالنفس والشعور باحترام الذات، وزرع فيك الشعور بالدونية، أعداؤنا يا منذر سوف يبقونا في خوف وقلق حتى نفقد شجاعتنا وحماسنا وحسن التصرف، أرى أنّ ثقتنا في أنفسنا تصغر واحترمنا لذاتنا يتآكل وشعورنا بالدونية يكبر ويكبر.

●- ولكني تعلّمت من تجربتي مع الخوف أنّه كلما زادت شدة المواجهة مع الخوف وزادت مدتها زادت القدرة على السيطرة على الخوف، وبالتالي التغلّب عليه.

⨀- شدة المواجهة مع الخوف، آه...آه يا منذر لم أعرف الخوف في حياتي إلا هذه الأيام، التعرض للإبادة، زلزال عنيف أصابني وقلبني إلى شخص آخر، خائف وحيران... كيف حال أمي وأبي؟

●- على الدوام في دعاء لك.

تنهّد مصطفى مع زفير طويل وحزين وقال:

●- في أمان الله يا منذر.

⨀- في أمان الله يا مصطفى.

24

مع اقتراب اليوم الدراسي الأول، اتصل بي أحمد وطلب مصاحبتي لزيارة صديق له، سألته:

●- وما سبب الزيارة؟

⨀- إنها خدمة لي... إنها ضرورية... هل تذهب معي اليوم بعد المغرب؟

●- على بركة الله

التقيت بأحمد بعد المغرب ونحن في السيارة، سألت أحمد:

●- إلى من تأخذني؟

⨀- إلى أحد عبدة الشيطان السابقين.

●- وما ضرورة وجودي بالضبط.

⨀- لقد أخبرته عنك... إنه محتاج إليك.

●- محتاج إلي! في ماذا بالضبط؟

⨀- ستسمع منه بعد قليل... أظن أنه يبحث عن الإيمان...هذا توقّع ربما أنّه يبحث عن أشياء أخرى ولكنه في مرحلة فارقة وحاسمة من حياته.

في تلك اللحظة اتصل بي عبد المجيد وقال:

●- لا تنسَ غدا أول أيام العام الدراسي الليلة موعد نشر التقرير، عندما ترسله أخبرني سواء بمكالمة أم برسالة.

⨀- أفكر في تأجيل نشر التقرير.

●- إنك تفكر في عدم نشر التقرير.

⨀– الموضوع ليس مرتبطًا بي وحدي ...هناك أمي وأبي.

●– أين التقرير؟

⨀– إنه على جهاز ذاكرة في جيبي.

●– أعطني إياه وأنا سأنشره.

في تلك اللحظة وصلنا إلى العمارة التي وجد والدي أسفلها جمجمة والد الدكتور صالح، علمت حينها أنّنا ذاهبان إلى رائد صديق أحمد.

⨀– أنا على موعد مع شخص وها أنا أقف على باب العمارة، سألتقي بك الليلة وسنكمل حوارنا.

قلت لأحمد:

●:– أنت تأخذني إلى رائد...

هزّ أحمد راسه بالموافقة.

استقبَلنا رائد وكان الاكتئاب ظاهرا على وجهه رغم محاولته الفاشلة في إطلاق الابتسامات، وما إنْ جلسنا حتى قال:

●– سأدخل في الموضوع على الفور... لقد أخبرك أحمد ماذا كنت... فقبل أسبوعين ابتعدت عن عبدة الشيطان، وكلما حاولت الرجوع إلى إيماني القديم منعني الخوف من الشيطان... الخوف من أن يؤذيني... يدمرني... يفقدني عقلي... الشيطان في قلبي... صاحب بطش... قادر أن يفعل بي ما يشاء، أرى الشيطان في عقلي سفّاحا مرعبا، ولكني محتاج إلى من ينزع من قلبي الخوف من الشيطان.

⨀– هل حاولت قراءة القرآن؟

●- حاولت ولكني لم أستطع الاقتراب منه، كلما أراه أتذكر المرّات التي رقصت فيها على احتراقه.

أنزل رائد رأسه ووضع راحة يده اليمنى على جبهته حتى ظننت أنه يبكي ولكنه وقف وسار خطوات وأدار ظهره لنا... قلت له:

●- هل تحسن فنّ المواجهة؟

⊙- لا ولكني أستطيع أن أتعلّمها... المواجهة والمقاومة أكثر كذبة كذبتها في حياتي، كنت دائما أعطي الدروس فيها وأنا فارغ منها... أنا في وضع لا يسمح لي بخداع نفسي والآخرين.

زلزلني هذا الشاب ورنّت كلماته الأخيرة في قلبي حتى جرحته... وكأنه قال أني كذّاب، أعطي الدروس في المقاومة والمواجهة وأنا فارغ منها، أدار رائد وجهه ونظر إلي وقال:

●- أريد أن تساعدني في شيء واحد وهو ألا يبقى في قلبي خوف إلا من الله، من الله فقط.

زلزلني هذا الشاب للمرة الثانية حتى أصبت بالارتباك، نهضت ومشيت عدّة خطوات ثم عصفَت في ذهني بقسوة كلمات متعددة، كان أولها كلامي لعبد المجيد:

●- لا أستطيع لأني مليء بالخوف والقلق...

ثم على الفور كلماتي لمصطفى:

●- ولكني تعلمت من تجربتي مع الخوف أنّه كلما زادت شدة المواجهة مع الخوف وزادت مدتها زادت القدرة على السيطرة على الخوف وبالتالي التغلب عليه....

ثم كلمات رائد الأخيرة:

●-أريد أن تساعدني في شيء واحد فقط، وهو ألا يبقى في قلبي خوف إلا من الله، من الله فقط.

أدرت وجهي إلى رائد وقلت:

●- ربما نستطيع معا أن لا نُبقي في قلوبنا سوى الخوف من الله، ولكن عليّ القيام بعمل ضروري لا يمكن تأجيله، أحتاج إلى حاسوب موصول بالإنترنت.

أحضر رائد حاسوبا محمولا وأخرجتُ من جيبي جهاز الذاكرة الرقمية (ذاكرة وميضيّة) المخزّن عليها التقرير وبعثته إلى أفضل عشرة مواقع إخبارية في البلد، وإلى جميع فروع نقابة المعلمين في كافة المحافظات. وبعد الانتهاء من نشر التقرير أخرجت جوالي وبعثت رسالة إلى عبد المجيد تقول:

●- لقد نُشِرَ التقرير بحمد الله.

واتفقتُ مع رائد وأحمد أن نلتقي مرة في الأسبوع لنمشي معا أول خطواتِ سقي قلوبنا من الخوف من الله فقط.

25

وفي اليوم التالي وهو أوّل أيام العام الدراسي حضرتُ إلى المدرسة، وبعد الحصة الرابعة أُخبِرتُ بضرورة مراجعة إدارة المدرسة. دخلت، وعلى الفور وقف المدير العام وقدّم لي مغلفا دون أن يطلب مني الجلوس، فتحته ثم قرأته قلت:

●- فُصِلتُ بسبب تشويه المناهج التي تدرسها المدرسة وإثارة النعرات الطائفية... هذا فصل تعسّفيّ.

⊙- إنه فصل غير تعسفيّ... من مصلحتك عدم مطالبة المدارس بأي شيء... بإمكانك المغادرة بهدوء.

غادرت وأنا أردّد في قلبي المجروح:

●- أنه كلما زادت شدة المواجهة مع الخوف والقلق وزادت مدتها زادت قدرتنا على السيطرة عليهما وبالتالي التغلب على الخوف والقلق.

26

ما أن وصلنا غابات جرش حتى أخرج رائد من حقيبته ثلاث صور، سرنا في السيارة على شارع ترابي تحفنا الأشجار حتى تراءى لنا برج كهربائي قال رائد:

●:- هذه هي المنطقة.

أعطى رائد صورة إلى أحمد، نظر أحمد إلى الصورة وقال:

●:- نعم هذه هي المنطقة

أوقف أحمد السيارة ثم وضع رائد أمامنا صورة شجرة مقلمة الأغصان مقشوطة اللحاء من أحد جوانب الجذع، وقال:

●:- علينا أن نجد هذه الشجرة

أوقف أحمد السيارة وأطفئ المحرك، قلت لهما:

●:- هل من الممكن أن أفهم لغز هذه الشجرة؟

أجاب أحمد، ستفهم كل شيء عندما نجد الشجرة، سنبحث عن الشجرة في محيط البرج الكهربائي، بإمكانك البقاء في السيارة أو البحث معنا.

⊙:- بل أبحث معكما

وما هي إلا دقائق معدودة حتى وجدنا الشجرة، ذهب أحمد لإحضار السيارة وبقيت أنا ورائد تحت الشجرة، وضع أحمد ورائد أدوات الشواء والكراسي تحت الشجرة، أخذ أحمد بإشعال الفحم على الموقد بينما ذهب رائد إلى السيارة وأحضر برّادا للماء سعة عشرين لترا، وما أن وضع أحمد

أسياخ اللحم على الموقد حتى فتح رائد براد الماء وأخرج منه مجرفة قصيرة اليد، وهي تلك المجرفة التي رأيتها في سيارة عبد المجيد واستغربت وجودها، دخل الريب والخوف إلى قلبي عند رؤية المجرفة، أخذ رائد يحفر تحت اللحاء المقشوط من الشجرة، كان الحفر هادئا وناعما وحذرا وعلى عمق ما يقارب نصف متر ظهر جلد أسود، توقف رائد ونظر حوله ثم نظر إلى أحمد، التفَتَ أحمد حوله دائرة كاملة ثم هز رأسه بالموافقة! أخرج رائد بهدوء وتمهل حقيبة جلدية مكعبة متساوية الأضلاع، طول ضلعها ما يقارب ربع المتر، ثم ذهب بالحقيبة وأخفاها داخل السيارة، أحسست بخوف مختلف عما أحسسته من قبل، فالخوف هذه المرة أشدّ إيلاما لدرجة أنه أفقدني الرغبة و الجرأة على السؤال والاستفسار، بقيت صامتا ويداي ترشحان عرقا وحلقي يكاد يتشقق من الجفاف، استمر أحمد ورائد في إكمال الشواء وبين دقيقة وأخرى يحاولا إرجاع المكان إلى هيئته الأولى، نظر إلي أحمد وقال:

●:-عندما كنا مع عبدة الشيطان تواصلت أنا ورائد عبرَ الإنترنت مع عبدة الشيطان في عدد من الدول، من بينهم عبدة الشيطان في إسرائيل، وبعد ستة أشهر من التواصل مع عبدة الشيطان في إسرائيل عرضوا علينا نقل قطع أثرية تأتي من خارج الأردن، من العراق وسوريا ومصر وبلاد أخرى، إلى داخل الأردن، ونحن نقوم بنقلها من داخل البلد إلى منطقة في جنوب البحر الميت، تبعد عن السياج الفاصل عشرة أمتار فقط، بعثوا لنا بصور مع اسم المنطقة وعن طريق الصور نتعرف على مكان التحف الأثرية، هذه هي المرة الخامسة، المرة الأولى كانت عبارة عن ثلاث قطع ذهبية عثمانية، والثانية أساور ذهبية

رومانية، والثالثة كانت عقدا ذهبيًّا مرصعا بالياقوت الفرعوني، أما الرابعة فكانت عبارة عن إبريق نحاسي أشوري، وهذه المرة الأخيرة رمانة من العاج بابلية، القطع الذهبية والأساور والعقد جميعها مزيفة وكانت عبارة عن اختبار لنا، أمّا الإبريق ورمانة العاج فهي قطع أثرية حقيقية، أما كيف اكتشفنا ذلك فسيخبرك رائد.

●:- أنا وأحمد في ورطة، ولا ندري كيف نخرج منها، لم يكن أمامنا إلا أنت... لقد قمتُ باختراق الجهاز الذي بعثت منه الصور، وما زلت احتفظ بعدة ملفات، من الضروري أن تطلع عليها، المشكلة هي في القطعة التي أخرجناها اليوم، وهي رمانة من العاج عبارة عن مجسم على شكل رمانة ارتفاعها ما يقارب خمسة سنتيمترات ،مثقوبة من الأسفل، هذه الرمانة أثر بابلي يرجع للقرن الثامن قبل الميلاد، تم تهريبها من العراق، ومحطتها التالية إسرائيل و هناك سوف يُنقشُ عليها عبارة: (مقدس للكهنة، هيكل الإله يهوه)، وليُدَّعى أنها كانت رأس صولجان كبير كهنة الهيكل.

قاطعت رائد وقلت:

●:- ولكن عند فحصها سيظهر أنها مزيفة!

○:- عندما يتم فحصها سيثبت أنها تعود إلى ٢٧٠٠ سنة فهي قطعة أثرية حقيقية ولا يوجد فيها شيء مزيف سوى النقش، أنت أمام تزييف من الصعب اكتشافه، أثر بابلي يتم تزييفه بنقش عبري... نحن لجئنا إليك لكي تساعدنا على الخروج من هذه الورطة.

قلت:

●:-بل من هذه الجريمة...

قال أحمد:

●:-نعم هي ورطة وجريمة

قال رائد:

●:-لابدَّ لك من قراءة أهم الملفات التي حصلت عليها وتتعلق بهدم المسجد الأقصى، وبناء الهيكل.

أخرج رائد من جيبه جهاز تخزين بيانات رقميّ (ذاكرة وميضيّة) وقدمها لي، أخذت الذاكرة وأنا أحاول جاهدا كبح قلقي والسيطرة عليه، قلت:

●:- مسألة بهذه الخطورة لابدّ لعبد المجيد أن يساعدنا في حلها.

قال أحمد

●:- أرجوك، أريد عبد المجيد أن يكون بعيدا عن هذا الموضوع.

○:- لن أعدك بذلك.

غادرنا غابات جرش وفي طريقنا إلى عمان، انعطف أحمد بالسيارة إلى طريق فرعي ترابي موحش ليس فيه أحد وبعد دقيقتين من السير توقفت السيارة، وأخرج رائد الحقيبة وأخرج منها رمانة العاج، كان منظرها مهيبا وجميلا ويفوح بعبق التاريخ، ولكنه كان بالنسبة لي مخيفا ومرعبا أيضا، قال أحمد:

●:- ما أجملها ولكن عندما أتخيلها رأس صولجان كبير كهنة الهيكل الذي سيقام على أنقاض المسجد الأقصى تبدو في منتهى البشاعة.

قلت:

●:-بشعة ومخيفة ومرعبة.

قال رائد:

●:- هذه الرمانة ستبقى عندي حتى الغد وفي الغد ستأتي يا أستاذ وتقول لنا ماذا نفعل...

27

ذهبت إلى البيت وأنا خائف، وما أن وصلت البيت حتى شغّلتُ حاسوبي وأوصلت جهاز الذاكرة الذي أعطاني إياه رائد، وأخذت أقرأ ما يتعلق بهدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل، ما قرأته يتمحور حول تكثيف الاستيطان في المدينة المقدسة، وتركيز تهويد القدس عن طريق القوة، وعن دعم جميع الحكومات اليهودية دون استثناء لذلك، أما الملف الآخر فيتعلق بتوسيع الحفريات بشكل متزايد تحت المسجد الأقصى وغيره من مناطق القدس للوصول إلى الهيكل المزعوم، وأن هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل هو هدف لكل الحكومات اليهودية، وإنّ هذا الهدف قد اقترب، والمسألة مسألة توقيت فقط، تخيلت في تلك اللحظة رمانة العاج على رأس صولجان يحمله كبير كهنة الهيكل، قلت في نفسي لابدّ من إخبار عبد المجيد، فأنا لا قدرة لي على التصرف في موضوع بهذه الخطورة.

ذهبت إلى عبد المجيد وأخبرته بكل ما أعرف، وعبد المجيد صامت وما كدت أنهي كلامي حتى رأيت في عيني عبد المجيد القلق عميقا وواضحا قال وهو يبلع ريقه بصعوبة:

●:- لا بد من تسليم رمانة العاج إلى دائرة الآثار، لا يوجد خيار آخر.

●:- نعم لا يوجد خيار آخر.

أمسكت بيد عبد المجيد فوجدتها ترشح عرقا، قلت:

●:-أصحاب رمانة العاج سيقبلون بالأمر الواقع، عندما تصبح الرمانة في دائرة الآثار

○:- لا أظن ذلك ،حياة أخي احمد في خطر حقيقي

28

في الغد التقينا نحن الأربعة في بيت رائد للتوجه إلى دائرة الآثار وتسليم رمانة العاج، أحضر رائد القهوة وما أن ارتشفت رشفة حتى قال رائد:

●:- قبل أن تتوجهوا إلى دائرة الآثار وتسلموا رمانة العاج، عليكم أن تسمعوا هذا الخبر

قاطعه عبد المجيد وقال:

●:- سنسمعه في الطريق، اشربوا قهوتكم بسرعة

أكمل رائد كلامه:

●:-جاء باحث فرنسي إلى الأردن بدعوة من دائرة الآثار العامة لدراسة أربعمائة وأربع (٤٠٤) قطع مسكوكات ذهبية في متحف عمان... المسكوكات تَمَّ اكتشافها في عمان قبل سنوات، وتَمَّ فحصها ودراستها وتبين أنها قطع أثرية قديمة وبعد دراسة المسكوكات الموجودة حاليا في المتحف، أبلغ الخبير الفرنسي دائرة الآثار أن المسكوكات الموجودة في المتحف غير أصلية وأنه تَمَّ استبدالها بقطع مزيفة... انتهى الخبر... عليكم أن تعلموا أن هذه الرمانة ممكن أن تسرق من دائرة الآثار وتستبدل بقطعة مزيفة.

هزني هذا الخبر، قطع أثرية حقيقية تسرق من المتحف وتستبدل بقطع مزيفة، ولا تُكتَشفُ إلا عن طريق باحث غربي!

قال عبد المجيد:

●:- ماذا نفعل إذًا، طريق دائرة الآثار أصبحت مغلقة وتسليمها لليهود ليوظفوها في هدم الأقصى وبناء الهيكل جريمة لا نستطيع اقترافها، والاحتفاظ بها مدة طويلة فكرة فاشلة، نهايتها أنْ نُقتَلَ جميعا، وترجع رمانة العاج لليهود!

قلت:

●:- ما رأيكم بإتلافها وتحويلها إلى رماد ثم ننثرُ رمادها في سيل أو نهر أو بحر؟

ردّ عبد المجيد:

●:-نريد حلا يبقينا على قيد الحياة.

قام أحمد إلى رمانة العاج وأخرجها من الحقيبة وحملها بيده، قال وهو وينظر إليها:

●:-ربما ما يبقينا على قيد الحياة هو تسليمها لليهود، وإخبارهم بقطع علاقتنا نهائيا معهم.

في تلك اللحظة تخيلت والد الدكتور صالح وهو داخل القبر، ويحثى عليه التراب وهو يقول: "لن أساهم في طعن أمتي" ثم صحوت على قول رائد:

●:- أرى أن نجعل رمانة العاج مع الأستاذ منذر مدة يومين، وخلالها يفكر كل منا في حلّ.

أربكتني فكرة المحافظة على رمانة العاج، وبقيت صامتا رغم شعوري بنظرات الجميع مصوبة علي، قلت وأنا أتحاشى النظر إليهم:

●:-رمانة العاج ستبقى عندي حتى الغد، وفي المساء نلتقي ونتبادل أفكارنا ونتفق على حل يبقينا على قيد الحياة دون أنْ نساهم في طعن أمتنا.

اقترب عبد المجيد مني وقال:

●:- البقاء على قيد الحياة هو الأساس لكل الحلول، ويجب أن يقتنع الجميع أنني لن أقبل بل سوف أمنع أي حلّ لا يقوم على المحافظة على حياة الجميع.

وضع رائد على الطاولة شنطة بلاستيكية في داخلها الحقيبة الجلدية التي تحتوي رمانة العاج، ثم نظر إليّ، وقال:

●:- متى يأتي الغد؟

29

عدت إلى البيت وأنا أحمل رمانة العاج، ولما دخلت غرفتي وأغلقت بابها أطلقت زفيرا طويلا، وأسندت ظهري ورأسي على الباب، وقلت بصوت مسموع:

●:- متى يأتي الغد... لقد حُكِمَ علي بالقلق المؤبد... يا الله رحمتك.

اتجهت بتثاقل نحو خزانتي لإخفاء رمانة العاج، فتحت الخزانة ونظرت داخلها ثم نظرت إلى خزانة أخي مصطفى، شعرت بأمان يتردد بحنان منها، شدني هذا الشعور لإخفاء رمانة العاج فيها، فتحت خزانة مصطفى، وأخفيت الرمانة. ولما هممت بإغلاق الخزانة وقع نظري على مصحف مصطفى؛ حملت المصحف وأغلقت الخزانة، فتحته وقلبت بعض صفحاته فوقع نظري على آيات خُطَّ فوقها بقلم فسفوريّ أخضر، قرأت الآيات وكأني أسمعها بصوت مصطفى:

(قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ، قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ)

جلست أفكّر في حلّ، وكلما وصلتُ إلى حلّ يخلصني من رمانة العاج، أتخيّل والد الدكتور صالح داخل القبر يُحثَى عليه التراب وهو يقول بصوت مطمئن: (لن أساهم في طعن أمتي)، ثمّ أقول لنفسي: "وكذلك أنا لن أساهم في طعن أمتي"، ولكن لا أدري ما أفعل، وبعد العصر بقليل، اتصلت

بعبد المجيد وطلبت لقاءه في المدينة الرياضية منفردا، انتظرته في المكان الذي شهد بداية التزامه بالصلاة، جاء عبد المجيد والقلق ظاهر على وجهه قلت له:

●:- يبدو انك لم تنم جيدا...

○:- ويبدو أنك لم تنم إطلاقا... نحن في ورطة كبيرة

●:- فكرت في حلّ يبقينا على قيد الحياة، وفي الوقت نفسه لا نساهم في طعن أمتنا، الحلّ هو أن نضع رمانة العاج في قاع أحد السدود.

○:- وماذا لو أجبرونا على قول الحقيقة، سيأتي أصحابها ويستخرجونها!

●:- وربما تدفن أتربة السدّ الرمانة ولا يستخرجها أحد.

○:- عندها سينتقمون منا ونُقتَلُ جميعا.

●:- سَنُترَك على قيد الحياة، حتى يتأكدوا من صدق كلامنا.

○:-لقد حَكمتَ علينا بالقلق المؤبد.

●:- بل واقعنا الظالم هو من حكم علينا بالقلق والخوف المؤبدين، لا بد من التخلص من رمانة العاج اليوم.

○:- أين هي الرمانة؟

●:- في سيارتي.

30

ذهبنا إلى سدّ الملك طلال، وصلنا قبل آذان العشاء بقليل، كنتُ أحمل سلّةً كبيرة ملأتها بالفواكه والمكسرات، وجعلت في أسفلها الحقيبة التي تحتوي رمانة العاج، اخترنا موقعا بعيدا عن تواجد الزائرين، وضع أحمد ورائد معدات الشواء، ووضعت سلّتي بجانبي، أخرجت حقيبة رمانة العاج من أسفل السلة، ثم فتحت الحقيبة وأخرجت رمانة العاج وقلت بعد أن أشعلت مصباح هاتفي المحمول:

●:- هذا وقت إلقاء النظرة الأخيرة على الرمانة.

تأمل الجميع رمانة العاج، قلت:

●:- وضعتُ في الحقيبة ثلاثة كيلو من الحديد، حتى أضمن غرقها في قاع السدّ.

وضعت رمانة العاج في الحقيبة وأرجعتها إلى أسفل السلة، قال رائد:

●:- الوقت الآن مناسب لإلقاء الرمانة في السدّ، أنا أتقن السباحة.

قال عبد المجيد:

●- هذه المهمة لي، سوف أسبح إلى وسط السد وألقي الرمانة هناك.

أخرجتُ الحقيبة من السلّة وقدّمتها إلى عبد المجيد، نظر إلى الحقيبة ولم يأخذها. بل شرع في خلع ملابسه، أخذ الحقيبة ونزل إلى السد ولما بلغ وسطه مكث عدة دقائق يغطس ثم يخرج من المكان نفسه والحقيبة في يده، كان من المتفق عليه أن يُسقط الحقيبة في وسط السد ويرجع على الفور، سبح عبد

المجيد راجعا إلينا، في تلك اللحظة اختلقت مكالمة من والدتي، أغلقت الهاتف وحملت سلّتي بكل ما فيها وقلت:

●:- سوف أعود أن استطعت... أريدُ الاطمئنان على والدتي.

وسرت نحو سيارتي على عجل حاملا سلتي، سرت بسيارتي نحو هدف محدد... إلى القبر الذي ترقد فيه الجمجمة التي وجدها أبي، جمجمة والد الدكتور صالح، وصلت المقبرة وما أن أوقفت السيارة حتى انفلت اللهاث من أحشائي، كانت تتفجر بين آهات اللهاث آلام الخوف وأوجاع القلق، هدأتْ آهات اللهاث، مكثت داخل السيارة حتى لم يبق في المقبرة أحد، خرجت من السيارة وأخرجت من السلة حقيبة رمانة العاج، تأكدت من وجود رمانة العاج الحقيقية، كنت قد اشتريت حقيبة تشبه حقيبة رمانة العاج، ووضعت فيها ثلاثة كيلوغرام من الحديد، ووضعتها أسفل السلة بجانب الحقيبة الأصلية، وعندما تهيأ عبد المجيد لدخول السدّ أعطيته الحقيبة المزيفة، وبقيَتْ الحقيبة الأصلية في السلة.

وضعت الحقيبة تحت إبطي، ووضعت فأسا صغيرا تحت إبطي الآخر، وأغلقت الجاكيت وسرت نحو قبر الجمجمة، نظرت خلفي فتراءت لي سيارة ساكنة معتمة، تبعد عن سيارتي ما يقارب الثلاثمئة متر، أربكني صمت السيارة وسكونها، ولكني واصلت المسير، وصلت قبر الجمجمة، تلفت حولي فلم أجد سوى تلك السيارة الصامتة المظلمة التي ما زالت على حالها، حفرت القبر حتى ظهرت البلاطة التي ترقد تحتها الجمجمة، رفعت البلاطة فظهرت الجمجمة، أخرجت رمانة العاج من الحقيبة، ووضعتها بجانب الجمجمة،

تأمّلتُ رمانة العاج ثم تأملت الجمجمة، فتخيلت صاحب الجمجمة والترابُ يُهال عليه قائلا: (لن أساهم في طعن أمتي)، أخرجتُ الجمجمة من القبر، وقبّلتها ثم أرجعتها مكانها، وفي تلك اللحظة سمعت صوتا خلفي ، التفت نحو الصوت فرأيت شبحا يقترب مني تسمّرتْ كل جوارحي، والشبح يقترب شيئا فشيئا وصوت الخطوات يرتفع جبروته في قاع أذني، ولما أصبح على بعد أمتار مني، أبعدت نظري عنه والتفت إلى الجمجمة و قبضت على رمانة العاج بيدي اليمنى، وبقيت محدقا في طيف الجمجمة، مرّ الشبح من جانبي و رأيت رجليه، جلس مقابلي عند نهاية القبر، وعيناي متحجرتان لا أستطيع رفعها، ومجال رؤيتي القبرُ ورجلاه فقط، وإذا بالشبح يقول:

●:- توقعت مجيئك إلى هنا.

رفعت رأسي شيئا فشيئا، فالصوت ليس غريبا عن مسامعي، مما أرخى قليلا قبضة الخوف عن قلبي، قال:

●:- أريد أن أرى رمانة العاج... إنها معك... أليست معك؟

○:- عبد المجيد... كم تمنّيتُ أن تكون بجانبي، آه... أنا في أمسِّ الحاجة إليك... لم أخبرك خوفا عليك، قبلتُ أن أتجرّع الخوف وحدي، حتى أُجَنِّبك مرارات الخوفِ من القادم وآلامه.

قدمت رمانة العاج إلى عبد المجيد، وتفحصها جيدا، قلت:

●:- ضعها بجانب الجمجمة.

وضعها عبد المجيد بجانب الجمجمة، ثم وضعتُ فوقهما البلاطة، ثم أهلنا التراب ورجع القبر كما كان في السابق. سرنا معا نحو سيارتي قلت ونحن نسير بين القبور:

●:- هل تعلم أنني أشعر وكأني في حلم، لا أصدق أنّني تصرّفتُ بهذه الشجاعة، وبهذه الحكمة، ما فعلته مخالف لطبيعتي، إنني أتعجّبُ أنّ قلبي لم ينهار...

●:- القلوب المؤمنة أقوى من الانهيار.

⊙:- كثيرا ما قلت لنفسي إنني حالة مصغرة عن الأمّة، رغم الخوف الذي يكبر فينا والقلق العملاق الذي يلتهمنا بوحشية، تبقى لدينا قدرة على المواجهة، قدرة تتجدد في قلوبنا رغم جروحها العميقة ونزيفها الفوار، تبقى لدينا قوة قادرة أن تمدّنا بالشجاعة عندما نطلبها وتقدّم لنا الثقة بالنفس عندما نشتاق للكرامة، وتضخّ لنا الاستعلاء ونحن نشعر بالدونية، قدرة مصدرها إيماننا بربنا، وقوة تنبع من ديننا العظيم.

سرت في سيارتي وخلفي عبد المجيد في سيارته، وفي الطريق مررت بالمكان الذي مات فيه الكبش، أوقفت سيارتي والفجر يوشك على الظهور، وسرتُ نحو مصرع الكبش، فوجدت جمجمة الكبش وبقايا من عظامه، ثم تحسّست الأوتاد والحبال اللاتي أُوثق بها، ثم وقع نظري على قطعة القماش السوداء التي عُصبت بها عينا الكبش، أخذتها وتأمّلتها ثم وضعتها بجانب الجمجمة، تحسست حبال الأوتاد ثم شرعت بنزع الأوتاد من الأرض حتى نزعتها جميعا، في تلك اللحظة أحسستُ بيد عبد المجيد على كتفي، أخبرته

بقصة الكبش، وأخبرته أيضا أنني كنت دائما أخشى أن يكون مصيري مثل مصيره...

قال وهو يربت على كتفي:

● :-قلت لك ...القلوب المؤمنة أقوى من الانهيار.

حملت جمجمة الكبش بيد والعصابة السوداء بيد، بينما حمل عبد المجيد الأوتاد المربوطة بالحبال بكل يد وتدين، والفجر يلوح أمامنا...

النهاية

2017/5/1